أجاثا كريستي

الرّحلة المَجهولة

دار النجمة للنشر والتوزيع

الرّحلة المَجهولة

أجاثا كريستي

الرّحلة المَجهولة

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

أزاح الرجل الجالس إلى المكتب ثقّالة الورق إلى يمينه بضع بوصات. كان وجهه أقرب إلى أن يكون جامد السمات خالياً من التعبير أكثر من أن يكون غارقاً في التفكير أو شارد الذهن. كان من الصعب عليك أن تتكهن بحقيقة عمره، فهو لا يبدو كهلاً ولا يبدو شاباً، فقد كانت بشرته ناعمة ملساء خالية من الغضون وإن أطلت من عينيه نظرة تستشف منها الإعياء. أما الرجل الآخر الذي يشاركه نفس الغرفة فكان أكبر سناً، وكان ملوح الوجه اسمراراً وله شارب صغير عسكري الطراز، وكان يبدو ملولاً لا يستقر على مقعده ولا يفتأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ومن حين لآخر يلقي بملاحظاته في كلمات حانقة.

انفجر يقول ساخطاً: كلها مجرد تقارير، تقارير، تقارير... ولكن لا نفع فيها.

تطلع الرجل الآخر الجالس إلى المكتب في الأوراق المكدسة أمامه، والتي رشقت فيها بطاقة تحمل هذه الكلمات «بيترتون، توماس شارل»، وبعد الاسم علامة استفهام كبيرة. ورفع الجالس إلى المكتب رأسه عن الأوراق وقال: لقد قرأت

كل هذه التقارير طبعاً، ألم تجد فيها بادرة ذات جدوى؟

فأجاب الآخر متسائلاً: من يدري؟

- صدقت، تلك هي المشكلة، فلا أحد يستطيع أن يقطع برأي.

عقّب الأكبر سناً بسيل من الكلمات بدا وكأنها تنطلق من مدفع رشاش، وقال: تقارير من روما وتقارير من تورين. لقد شوهد في الريفيرا وشوهد في أنتويرب. من المؤكد أنهم رأوه في أوسلو ومن المؤكد أنهم رأوه في ستراسبورج وكان سلوكه باعثاً على الريبة، وكذلك شوهد في شاطئ أوستند وفي صحبته شقراء رائعة الجمال، والبعض لمحوه في شوارع بروكسل ومعه كلب سلوقي... ثم أردف في نبرة تتسم بالسخرية: لم يبق إلا أن يُشاهد في حديقة الحيوان يحتضن حماراً مخططاً وحشياً!

قال صاحب المكتب: أنت رجل تفتقر إلى الخيال يا هوارتون أما أنا فأعلق شيئاً من الأهمية على تقرير أنتورب.

ارتمى الكولونيل هوارتون جالساً على مسند مقعد وقال في إلحاح: ولكن يجب أن نميط اللثام عن هذا اللغز. يجب أن نجد جواباً على هذه الأسئلة: كيف؟ وأين؟ فأنت لا تستطيع أن تسكت على اختفاء عالم فذ كل شهر تقريباً ثم تجد نفسك عاجزاً عن الإجابة على هذه الأسئلة البسيطة: كيف، ولماذا، وأين؟ أتراه حيث تعتقد أنه موجود أم أنه ليس هناك؟ ثم أردف: هل قرأت نتيجة التحريات الأخيرة عن بيترتون في أمريكا؟

أومأ الرجل الجالس إلى المكتب برأسه إيجاباً وقال: نفس الميول اليسارية المعروفة، في الوقت الذي شاعت فيه واعتنقها الناس جميعاً. ميول غير ثابتة وذات طبيعة غير مستقرة كما تبين فيما بعد، وقبل الحرب أنجز أعمالاً هامة ذات شأن، وعندما هرب مانهيم من ألمانيا عُيّن بيترتون مساعداً له، وانتهى به الأمر إلى أن تزوج ابنة مانهيم. ثم قفز إلى الشهرة باكتشافه المثير لتحطيم الذرة. والحق أن تحطيم الذرة كان دون شك اكتشافاً ثورياً دفع بيترتون إلى القمة وجعل منه قطباً من أقطاب العلوم الذرية، ولكن زوجته ما لبثت أن ماتت عقب الزواج فانهار بيترتون حزناً عليها وفجعه موتها، ثم جاء إلى إنجلترا وعمل في هارويل ثمانية عشر شهراً، ومنذ ستة شهور تزوج للمرة الثانية.

فتساءل هوارتون في حدة: وما معلوماتنا عن زوجته؟

- لا شيء ذا أهمية، كل ما نعرفه عنها أنها ابنة محام من أهل المنطقة وكانت تعمل في إحدى شركات التأمين قبلَ زواجها، وليست لها فيما عرفنا اتجاهات سياسية واضحة.

- وما الذي يقولونه عنه في هارويل؟

- شخصية لطيفة محبوبة. أما عن عمله فلا شيء ذا شأن بارز، مجرد تحسينات أدخلها على جهاز تفتيت الذرة.

ران الصمت على الرجلين برهة من الوقت، وكان حديثهما مجرد ثرثرة قطعاً للوقت لا تتسم بشيء من الجدية، فتقارير الأمن لا تحوي عادة شيئاً جديراً بالاهتمام.

ثم قال هوارتون متسائلاً: طبعاً كانت تحركاته محل مراقبة منذ حط قدميه في إنجلترا؟

- وكان كل شيء مرضياً تماماً.

فقال هوارتون متأملاً: ثمانية عشر شهراً وهو تحت المراقبة. إنك تعلم أن هذه المراقبة تثير أعصابهم. احتياطات الأمن المتواصلة تحطم نفسيتهم، الشعور بأنهم دائماً تحت المجهر... هذه الحياة محسوبة عليهم في كل حركة من حركاتهم وكل لفتة من لفتاتهم. كل هذا كفيل بأن يجعلهم عصبيين وأن يحملهم على تصرفات شاذة، فقد رأيت الكثير من هذه الحالات. وسكت هنيهة ثم استطرد يقول: وعندئذٍ يبدؤون في الحلم بعالم مثالي، عالم تسوده الحرية والأخوة وتشارك فيه الدول في أسرارها العلمية ذات الطابع العسكري وتعمل متضافرة من أجل خير الإنسانية، وتلك هي اللحظة الملائمة لكي ينقض عليهم شخص لا يهمه إلا أن يدمر الإنسانية، إنه يرى الفرصة ويبادر إلى اقتناصها.

- وددت لو أنني عرفت المزيد عن بيترتون، لا أعني بذلك حياته أو عمله وإنما الأشياء الأخرى الصغيرة. إن هذه الأشياء التافهة تكشف الكثير. النكات التي تضحكه، ما يستفزه ويثيره وما يجعله يسب ويشتم، الأشخاص الذين يعجب بهم أو يثيرون حنقه...

تطلع إليه هوارتون في عجب واستغراب، ثم تساءل: وماذا بشأن زوجته؟ أتراك استجوبتها؟

- عدة مرات.

- أما من فائدة ترجى منها؟

هز صاحب المكتب كتفيه وقال: لا شيء حتى الآن.

- أتعتقد أنها تعرف شيئاً؟

- لم تعترف طبعاً بأنها تعرف شيئاً أو أنها لاحظت شيئاً، لا قلق ولا حزن ولا يأس ولا اكتئاب. كانت تسير سيراً طبيعياً عادياً بلا ضغوط من أي نوع كان، وهي تعتقد أن زوجها قد اختطف.

- وأنت لا تصدق هذا؟

- أنا رجل كثير الوساوس والشكوك، ولهذا لا أصدق أحداً.

قال هوارتون في بطء وتمهل: على أية حال ينبغي على المرء أن يكون ذا ذهن متفتح بعيد عن التشبث. ثم أردف: ولكن ما رأيك بالزوجة؟

- طراز عادي تلقاه كل يوم منهمكاً في لعب البريدج.

- هذا يزيد الأمر صعوبة وتعقيداً.

- إنها موجودة الآن هنا لمقابلتي، ومن جديد سوف نعيد ونبدأ فيما كنا فيه.

فقال هوارتون: لا داعي لبقائي الآن، فلا أريد أن أحتجزك أكثر من هذا. ليس لدينا ما نتداول فيه، أليس كذلك؟

- نعم، لسوء الحظ، ولكني أريد منك أن تدرس تقرير وارسو وتتحرى عن دقة ما فيه من معلومات، إذ يتراءى لي أنه بداية طيبة.

أومأ هوارتون برأسه موافقاً وغادر الغرفة، ورفع الجالس إلى المكتب سماعة التليفون وأمر باستدعاء السيدة بيترتون لمقابلته.

جاءت نقرات خفيفة على الباب ودخلت السيدة بيترتون. كانت امرأة طويلة القامة في نحو السابعة والعشرين من العمر تتميز بشعر أحمر اللون ذي مسحة نحاسية. ولاحظ وجهها خال من التجميل، وأثارت هذه الملاحظات في نفسه الشعور بأن السيدة بيترتون تعرف شيئاً وأنها تخفي ما تعلم. لقد علمته خبرته الطويلة أن المرأة المسرفة في حزنها وقلقها لا تهمل أبداً تجميل وجهها، فهي تعرف أن الحزن الشديد يضفي على وجهها سمة منفرة بشعة فتبذل ما في وسعها لكي تصلح ما أفسده الحزن، ولكن لعل السيدة بيترتون آثرت أن لا تتجمل حتى تبث في نفسها الاعتقاد بأنها شاردة الذهن غارقة في همومها لا تحفل بنفسها.

رحب بها الرجل وأشار إلى مقعد ودعاها إلى الجلوس، وقبل أن تستقر عليه هتفت به منبهرة الأنفاس: أوه يا سيد جيسوب! أما من نبأ عن زوجي؟

- يؤسفني يا سيدة بيترتون أن جشمتك مشقة الحضور، ولكني أخشى أن لا تكون لدي حتى الآن أنباء مؤكدة.

فعقبت أوليف بيترتون بكلمات سريعة: أعرف هذا، فقد أشرتَ إلى ذلك في خطابك، ولكن كنت أرجو أن يكون قد بلغك نبأ جديد منذ بعثت إليّ برسالتك. أنا سعيدة بأنك دعوتني إلى الحضور، فأسوأ ما في الأمر أنني حين أخلو إلى نفسي في البيت لا أملك إلا أن أفكر وأتعذب، فلا شيء لديّ أفعله سوى هذا.

- أرجو أن لا يضايقك يا سيدة بيترتون أن أعود مرة أخرى إلى ما كنا فيه، وإلى ترديد نفس الأسئلة ومعاودة الإلحاح على نفس النقط، فمن المحتمل دائماً أن تبدو كلمة واحدة مفتاحاً لحل اللغز أو أن تتذكري شيئاً نسيتِه في المرة السابقة.

- إنني أدرك ذلك، فوجه إليّ مرة أخرى نفس الأسئلة إذا طاب لك ذلك.

استهل السيد جيسوب استجوابها بأن قال: كانت آخر مرة رأيت فيها زوجك في اليوم الثالث والعشرين من شهر أغسطس، أليس كذلك؟

- تماماً يا سيدي.

- أكان هذا عند مغادرته إنجلترا إلى باريس لحضور أحد المؤتمرات؟

- نعم.

- وحضر زوجك اليومين الأولين من أيام انعقاد المؤتمر، ولكنه تخلف في اليوم الثالث، وتبين أنه ذكر لأحد زملائه أنه

سيذهب بدلاً من ذلك في رحلة نهرية في نهر السين؟

- رحلة نهرية؟!

- نعم، في تلك القوارب التي تجوب نهر السين.

ثم تأملها جيسوب بنظرة فاحصة وقال: أيدهشك هذا التصرف من قبل زوجك يا سيدة بيترتون؟

أجابت في شيء من التردد: نعم يدهشني، فعهدي به أنه شديد الحرص على المؤتمر.

- هذا جائز، ومع ذلك فإن الموضوع الذي كان مطروحاً للمناقشة في المؤتمر في ذلك اليوم ما كان من الموضوعات التي تهم زوجك، ولذلك آثر أن يتخلف عن الجلسة وأن يمنح نفسه عطلة يرتاح فيها. ولكن ألا يبدو لك غريباً أن زوجك مولع بالرحلات؟

هزت رأسها إيجاباً، واستطرد جيسوب: في تلك الليلة لم يرجع زوجك إلى فندقه، وطبقاً لمعلوماتنا المؤكدة فإنه لم يعبر الحدود، أو على الأقل لم يستخدم جواز سفره في اجتيازها، هذا إذا كان قد عبرها. ثم أردف يسألها: أتعتقدين أن لزوجك جواز سفر آخر باسم مستعار مثلاً؟

- لا بالطبع، ما الذي يدعوه إلى هذا؟

- ألم تري في متاعه مثل هذا الجواز؟

هزت رأسها نفياً بشدة واضحة وقالت: أبداً، كما أنني لا أصدق أبداً أنه يمكن أن يقدم على هذا. إنه لا يمكن أن يغادر

باريس عمداً واختياراً كما تحبون أن تصوروا اختفاءه، لا بد أن شيئاً قد حدث له أو أنه فقد ذاكرته.

- أكانت صحته عادية وسليمة؟

- نعم، كان يجهد نفسه في العمل وفي بعض الأحيان يحس أنه متعب مكدود، ولكن لا شيء أكثر من هذا.

- ألم يكن يبدو قلقاً أو مكتئباً على أية صورة؟

- لا، لم يكن أبداً مكتئباً لأي سبب كان.

وبأصابع مترددة فتحت حقيبتها وتناولت منديلها وسترت به وجهها، وتهدج صوتها وهي تقول: إن الأمر فظيع، فظيع جداً. إنني لا أستطيع أن أصدق ما حدث، فهو لم يسافر أبداً دون أن يخطرني. لا بد أن شيئاً قد حدث له، إما أن يكون قد اختطف وإما أن اعتداءً وقع عليه. إنني أحاول دائماً أن أطرد الأفكار والوساوس من ذهني ولكنني لا أملك في بعض الأحيان إلا أن أتخيل أن التعليل الوحيد هو أنه قد قُتل.

- أرجوك يا سيدة بيترتون أن تنزعي هذا الخاطر من رأسك. إذا كان قد قتل فلا بد أن تكون جثته قد اكتشفت الآن.

- وما يدرينا؟ ربما يكون قد أغرق في أحد الأنهار مثقلاً بالأحجار. هذا ما يحدث في بعض الأحيان.

- أنت تسرفين في الأوهام والتخيلات يا سيدة بيترتون.

أزاحت المنديل عن عينيها وحدجته بنظرة بدا فيها غضبٌ

شديد وقالت: أعرف ما يدور في خلدك، لكن الأمر ليس كما تتصور. إن توم لا يمكن أن يبيع الأسرار أو يفشيها، وهو لم يكن شيوعياً أو فاشيستياً حتى يفشي الأسرار إلى هؤلاء أو أولئك.

فسألها: وما عسى أن تكون معتقداته السياسية يا سيدة بيترتون؟

- أعتقد أنه كان في أمريكا ديمقراطياً، وهنا في إنجلترا كان يصوت مع حزب العمال. وعلى أية حال فهو لم يكن يهتم بالسياسة. ثم أضافت في نبرة منطوية على التحدي: كان عالماً قبل كل شيء، وكان عالماً فذاً لامعاً.

قال جيسوب: تماماً، كان عالماً وتلك هي المشكلة. ما يدرينا أنه قد عُرض عليه راتب ضخم أغراه بمغادرة البلاد ليعمل في مكان آخر؟

تفجر الغضب في صوتها وهي تقول في انفعال: هذا غير صحيح، وهو ما تحاول الصحف أن توحي به وتثبته في الأذهان، وهو ما يدور في رؤوسكم جميعاً عندما جئتم لاستجوابي، ولكنه ليس صحيحاً! ما كان يرحل أبداً إلا إذا أخطرني، أو على الأقل أعطاني فكرة عن نواياه.

- ألم يخبرك بشيء؟ أي شيء؟

وللمرة الثانية كان يحدجها بنظرة فاحصة، فأجابت: لا شيء أبداً. لا أعرف أين هو ولكني أعتقد أنه إما أن يكون قد اختطف أو قتل.

- أنا آسف يا سيدة بيترتون، آسف جداً، ولكن أرجوك أن تتأكدي من أننا نبذل أقصى ما في وسعنا لنعرف حقيقة ما وقع لزوجك. إننا نتلقى كل يوم تقارير من مختلف الجهات.

فتساءلت في حدة: وما الذي تحويه هذه التقارير؟

- إننا لا نزال ندرسها ونتبين صحتها من زيفها، ولكنها بوجه عام غامضة ولا شيء قاطع فيها.

فعادت ترد في صوت نابض باليأس: ولكن يجب أن أعرف ما فيها. إنني لا أستطيع أن أستمر على هذا.

وران عليهما الصمت برهة، ثم قال جيسوب: الذي أحاول أن أصل إليه يا سيدة بيترتون هو أن أتخيل صورة صادقة لزوجك، أي نوع من الرجال هو. ولكنني أرى أنك لا تحاولين أن تساعديني.

- وما عساي أستطيع أن أقول أكثر مما قلت؟ فقد أجبت على جميع أسئلتك.

- صحيح أنك أجبت على أسئلتي، غير أن معظم إجاباتك كانت النفي أو الإنكار. أنني أريد رداً إيجابياً، رداً موضحاً. هل تدركين ما أعني؟ إنك تستطيعين أن تنفذي إلى خبايا الرجل ودخائله إذا عرفت أي نوع من الرجال هو.

تريثت فترة مفكرة ثم ردت: فهمت، وكل ما أستطيع قوله أن توم كان رجلاً مرحاً لين العريكة، وكان طبعاً قديراً في مهنته.

فابتسم جيسوب وقال: هذه أوصاف عامة يمكن أن تنطبق على أي إنسان، ألا يمكن أن نتكلم عن صفات ذات طابع شخصي، صفات أكثر التصاقاً به. مثلاً، هل هو مولع بالاطلاع والقراءة؟

- نعم، إنه يقرأ كثيراً.

- أي نوع من الكتب يؤثره؟

- تراجم المشهورين وسير حياتهم، وأيضاً كتب الاجتماع وقصص الجريمة عندما يكون مجهداً.

- إذن هو قارئ تقليدي كمعظم الناس. حسناً، هل يلعب الورق أو الشطرنج؟

- إنه يلعب البريدج، وقد اعتدنا أن نلاعب الدكتور إيفانزا وزوجته مرة أو مرتين في الأسبوع.

- هل لزوجك أصدقاء كثيرون.

- نعم، فهو يحب الاختلاط والحياة الاجتماعية.

- ليس هذا ما عنيت، وإنما أردت أن أسأل عما إذا كان رجلاً يولي أصدقاءه اهتماماً شديداً؟

- إنه يلعب الغولف عادة مع واحد أو اثنين من جيراننا.

- أليس له أصدقاء حميمون أو خلان قدماء؟

- كلا، أنت تعلم أنه قد وُلد في كندا وأمضى في الولايات

المتحدة ردحاً طويلاً، فلم تهيأ له الفرصة هنا لمعرفة الكثيرين.

تطلع جيسوب في ورقة منشورة أمامه على المكتب وقال: نحن نعرف ثلاثة أشخاص من الولايات المتحدة زاروه في الأيام الأخيرة، وأسماؤهم لديّ هنا. وطبقاً لتحرياتنا فإن هؤلاء الثلاثة هم الوحيدون الذين زاروه من خارج البلاد، ولذلك فإننا نولي أمرهم اهتماماً خاصاً. وأولهم هو ولتر جريفيث، وقد زاركم في هارويل.

- صحيح، فقد أتى إلى إنجلترا وحضر لزيارة توم.

- وماذا كان رد الفعل عند زوجك.

- دهش توم لرؤيته. ولكنه كان سعيداً جداً بهذه الزيارة، فقد كانت بينهما في أمريكا معرفة وثيقة.

سألها جيسوب: وعلى أية صورة بدا جريفيث في نظرك؟

- ولكنكم حتماً تعرفون كل شيء عنه.

- نعم، إننا نعرف عنه كل شيء، ولكني أريد أن أسمع منك أنت رأيك فيه.

فكرت لحظة ثم أجابت: لقد بدا رجلاً جاداً يبعث مجلسه على الضجر، وكان مهذباً جداً وشديد المجاملة في لقائه معي، ولاح لي أنه مولع جداً بتوم ومتلهف إلى أن يحدثه عما جرى في الولايات المتحدة منذ أن بارحها توم إلى إنجلترا. وأظن أن حديثه كان يدور حول الأخبار المحلية، ولكنه لم يكن بالنسبة لي حديثاً مسلياً، إذ لم أكن أعرف أحداً ممن يتحدث عنهم.

وعلى أية حال فقد كنت في سبيل إعداد العشاء، ولذا فقد تركتهما معاً يستعيدان الذكريات القديمة.

- ألم يتحدثا في السياسة؟

تضرج وجه السيدة بيترتون احمراراً وردت: لعلك تحاول أن تلمح إلى أن جريفيث شيوعي أو فاشيستي، أنا واثقة من أنه ليس هذا أو ذاك. إنه فيما أعتقد موظف في مكتب النائب العام.

- والآن فلننتقل إلى الزائر الثاني الذي أتى من وراء البحار، الدكتور مارك لوكاس. لقد التقيتما به صدفة في فندق دورسيت؟

- هذا صحيح، كنا نتناول العشاء في دورسيت بعد خروجنا من المسرح، فإذا بنا نلتقي فجأة بهذا الرجل. إنه يعمل باحثاً كيماوياً وآخر مرة التقى فيها بتوم كانت في الولايات المتحدة، وهو لاجئ ألماني اكتسب الجنسية الأمريكية. وأنت طبعاً تعرف كل هذا.

- نعم، أنا أعرف ذلك يا سيدة بيترتون. ثم أردف: هل دهش زوجك لرؤيته؟

- نعم، دهش جداً.

- وهل سر بلقائه؟

- نعم، نعم. أظن ذلك.

- ولكنكِ غير متأكدة؟

- فهمت من توم فيما بعد أن هذا الرجل لا يهمه.

- وهذا اللقاء، أكان مجرد صدفة؟ ألم يكن هناك تدبير سابق بحيث يبدو اللقاء عارضاً؟

- كلا، بل كانت مقابلة عارضة.

استطرد جيسوب: أما الزيارة الأخيرة فقد كانت صاحبتها سيدة تدعى السيدة كارول سبيدر، وكانت هي الأخرى قادمة من الولايات المتحدة. فكيف تمت تلك المقابلة؟

أجابت السيدة بيترتون: أعتقد أنها موظفة في الأمم المتحدة، وكانت قد تعرفت بتوم عندما كان مقيماً في أمريكا. وقد اتصلت به تليفونياً من لندن وأخبرته بوجودها في إنجلترا، وسألته عما إذا كنا نستطيع أن نتناول الغداء معاً في يوم من الأيام، ولكننا اعتذرنا عن عدم تلبية دعوتها.

- أنت التي لم تزوريها، أما زوجك فقد لبى الدعوة.

فحملقت فيه بدهشة وهي تقول: ماذا تقول؟!

- ألم يقل لك زوجك أنه زارها؟

- كلا، لم يخبرني بشيء.

بدت السيدة بيترتون قلقة ومرتبكة، وأحس الرجل الذي استجوبها بالرثاء لها، وغمغمت في صوت خافت مأخوذ: من الغريب أنه لم يحدثني عن زيارته لها.

تابع جيسوب: لقد تناول الغداء معها في فندق دورسيت حيث كانت السيدة سبيدر تقيم، وكان ذلك في يوم الأربعاء ١٢ أغسطس.

قالت متألمة: الأربعاء ١٢ أغسطس؟ نعم، لقد ذهب إلى لندن في ذلك اليوم، ولكنه لم يشر أبداً إلى التقائه بها. ثم تفجر على لسانها السؤال الذي كان يعتمل في رأسها: ما شكلها؟ ما هيئتها؟

- ليست من النوع الرائع الخلاب يا سيدة بيترتون، امرأة شابة كادحة في الثلاثين من العمر، وليست من النوع الذي يسترعي الأنظار، وليس هناك ما يدل مطلقاً على أنها وثيقة الصلة بزوجك، وهذا ما يدعو إلى التساؤل عما حدا به إلى كتمان الأمر عنك.

- نعم، نعم. الأمر غريب حقاً.

- والآن أرجوك يا سيدة بيترتون أن تفكري جيداً. ألم تلاحظي أي تغير في سلوك زوجك منذ ذلك اليوم؟ أي حوالي منتصف شهر أغسطس؟ أعني قبل سفره إلى المؤتمر بنحو أسبوع؟

- لا، لا، لم ألاحظ أي شيء، كان سلوكه عادياً ولم يطرأ عليه تغيير.

ودق جرس الهاتف الداخلي الموجود على مكتبه، فتناول السماعة وأدناها من أذنه، وأتاه صوت من الطرف الآخر يقول: هنا رجل يريد أن يقابل أحد المسؤولين بشأن موضوع بيترتون.

- ما اسمه؟ وخط جيسوب الاسم على قصاصة أمامه ثم قال: أهو بولندي الجنسية؟

- لا أدري يا سيدي، أنه يتكلم الإنجليزية بطلاقة ولكن بلكنة أجنبية.

- حسناً، اطلب إليه أن ينتظر.

ودفع جيسوب إلى السيدة بيترتون بالقصاصة المكتوب عليها الاسم وسألها: أتعرفين أحداً بهذا الاسم؟

اتسعت عيناها دهشة وهي تقرأ الاسم، وخيل إليه أن بادرة من الخوف قد غشيت عينيها لحظة، ثم قالت: نعم، أعرفه. لقد بعث إليّ بخطاب بالأمس. إنه ابن خالة زوجة توم الأولى وقد وصل لتوه إلى هذه البلاد، وكان شديد الاهتمام بمسألة اختفاء توم فكتب إليّ يسألني عما إذا كانت لدي أية أنباء عنه.

- ألم تسمعي عنه من قبل، ألم تتقابلا؟

فهزت رأسها وأجابت: أبداً، لم يحدثني توم عنه قط ولم ألتقِ به في أي يوم من الأيام.

- إذن من المحتمل أن يكون مدعياً؟

قالت: هذا الخاطر لم يدر بخلدي. ثم أردفت: كانت زوجة توم الأولى أجنبية، إنها ابنة عم البروفسور مانهايم، فهذا الشخص كما يبدو من خطابه يعرف كل شيء عنها وعن توم، ولكن إذا كان مدعياً فما الهدف من وراء ذلك؟

فرد جيسوب: إنه السؤال العويص الذي يتردد على ألسنتنا في هذا المكتب. إننا دائماً نسأل أنفسنا: ما الهدف من

هذا وما الهدف من ذاك؟ ومع ذلك فالجواب دائماً مستعص لا سبيل إليه.

قالت السيدة بيترتون: لم أعد أطيق هذه الحال! لا شيء إلا أن أجلس وأنتظر. إنني أريد أن أسافر إلى أي مكان على سبيل التغيير، وأفضل أن أسافر إلى الخارج لأروح عن نفسي. أنا موشكة على الانهيار، إنني أحاول أن أتشبث بالشجاعة ولكن أعصابي لم تعد تحتمل. وقد كتبت إلى طبيبي أستطلع رأيه فأشار عليّ بضرورة السفر على سبيل الاستجمام ثلاثة أسابيع أو أربعة.

وأخرجت من حقيبتها خطاب الطبيب ودفعت به إلى جيسوب، فقرأه وأعاده إليها فسألته: أيمكن السماح لي بالسفر؟

- نظر إليها بدهشة وقال: طبعاً يمكنك أن تسافري متى شئت يا سيدة بيترتون.

- كنت أخشى أن تعترضوا.

- ولماذا نعترض؟ كل ما هنالك هو أنني أريد أن أعرف مقرك لأتصل بك إذا أتتني بعض الأنباء.

فردت: في نيتي أن أسافر إلى مكان مشمس، إسبانيا أو مراكش.

- إذن أتمنى لك رحلة طيبة.

وانصرفت وهي ما تزال بادية القلق والاضطراب.

* * *

الفصل الثاني

ما أن انصرفت أوليف بيترتون حتى استُدعي الزائر الذي كان بالانتظار إلى مقابلة سيد جيسوب. قال الزائر وهو يستوي جالساً على أحد المقاعد: أنا الميجور غلايدر، وهاك خطاب تعريف من السفارة الأمريكية.

مرّ جيسوب بعينيه على سطور الخطاب في نظرة سريعة، ثم وضعه أمامه على المكتب وسأله: أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك يا ميجور؟

- أنا قادم لتوي من الولايات المتحدة، وقد أتيت إليك أسألك عما إذا كانت لديك أنباء جديدة عن توماس بيترتون الذي اختفى أخيراً وبطريقة مثيرة، إن المرء لا يستطيع أن يصدق دائماً ما تنشره الصحف، وقد قيل لي إنك الوحيد الذي لديه معلومات موثوق بها.

قال جيسوب: يؤسفني أنه ليست لدي معلومات مؤكدة عن بيترتون.

- خطر لي أنه ربما أوفد إلى الخارج في مهمة خاصة، مهمة سرية.

فقال جيسوب في كلمات متمهلة: إن بيترتون يا سيدي العزيز مجرد عالم وليس دبلوماسياً أو عميلاً سرياً.

استطرد الميجور غلايدر بنفس اللهجة الجدية: الألقاب كثيراً ما تكون خادعة يا سيد جيسوب، ولعلك الآن تتساءل عما يدفعني إلى الاهتمام بهذا الموضوع. إن توماس بيترتون يمتّ إليّ بصلة القربى عن طريق الزواج.

- أنت فيما أعتقد ابن أخت البروفيسور مانهايم.

- آه، إنكم هنا تتحرون عن كل إنسان.

غمغم جيسوب باسماً: إن الناس يأتون إلينا هنا ويفضون إلينا بما لديهم، لقد كانت السيدة بيترتون هنا وهي التي أخبرتنا بهذا، وقالت أيضاً إنك قد بعثت إليها برسالة.

- نعم، كتبت إليها أعزيها وأسألها عما إذا كان لديها أنباء جديدة. إن أمي هي الأخت الوحيدة للبروفيسور مانهايم، وقد كانا شديدي التعلق كلاهما بالآخر. وعندما كنت طفلاً كنت أقضي معظم الوقت في بيت خالي، وكانت إلزا بالنسبة لي بمثابة أخت شقيقة، وعندما مات أبي وأمي انتقلت للإقامة في بيت خالي. وكانت أياماً سعيدة، ثم جاءت الحرب بويلاتها ومآسيها وهرب خالي وإلزا إلى أمريكا، أما أنا فبقيت في بولندا وانضممت إلى المقاومة السرية، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها سافرت إلى الولايات المتحدة لأزور خالي وابنة خالي، هذا هو كل شيء.

ثم تابع الحديث قائلاً: وبعد أن فرغت من إنجاز المهام

التي أوكلت إليّ في أوروبا قررت أن أستقر في الولايات المتحدة بصفة دائمة لأكون بالقرب من خالي وابنة خالي وزوجها، ولكن واأسفاه! ما كدت أصل إلى أمريكا حتى مات خالي في حادث سيارة، ثم ماتت إلزا ابنة خالي، أما توماس بيترتون زوج ابنة خالي فرحل إلى إنجلترا وتزوج للمرة الثانية، فعدت كما كنت من قبل بغير أسرة أرتبط بها، وعندئذٍ قرأت في الصحف نبأ اختفاء العالم الشهير توماس بيترتون فحضرت إلى إنجلترا لأرى ما يمكن عمله.

وتراخى الميجور غلايدر في مقعده وقال متسائلاً: سيد جيسوب، لماذا اختفى بيترتون؟

قال جيسوب: تمنيت لو أنني عرفت.

- ولكنك تشتبه في شيء ما على الأقل؟

قال جيسوب في حذر: هذا جائز، فاختفاء بيترتون ليس الأول من نوعه.

- هذا صحيح، فقد قرأت عن الكثير من حوادث الاختفاء.

وأخذ الزائر يشير في كلمات سريعة إلى عدد من حوادث الاختفاء التي وقعت في العهد الأخير، ثم عقب بقوله: وكلهم من العلماء، أليس غريباً؟

ولبث جيسوب صامتاً فيما استطرد الميجور غلايدر: أتراهم ذهبوا إلى ما وراء الستار الحديدي؟

- هذا أحد الاحتمالات. ولكنه ليس احتمالاً قاطعاً، فمن

المحتمل أنهم انضموا إلى إحدى الجماعات السرية الفاشيستية أو أنهم قد ضاقوا بعملهم...

- ولكنهم ذهبوا طواعية واختياراً بالطبع؟

- قال جيسوب: حتى هذا السؤال من الصعب الإجابة عنه. ثم أردف: ولكن ما هو سر اهتمامك ببيترتون وهو بالنسبة إليك ليس إلا مجرد نسيب عن طريق الزواج؟ بل أنت لم تقابله أبداً في حياتك.

- هذا صحيح، ولكن الأسرة عندنا معشر البولنديين تعد من الروابط الوثيقة، وهي تفرض علينا التزامات لا نملك أن نتحلل منها.

ونهض غلايدر معتذراً: لقد شغلت من وقتك أكثر مما ينبغي، شكراً على أن قابلتني.

فنهض جيسوب واقفاً وهو يقول: يؤسفني أنني لم استطع أن أساعدك، ولكني أحب أن أؤكد لك أننا لا نعرف شيئاً على وجه اليقين، ولكن إذا بلغني أي نبأ فأين يمكن أن أتصل بك؟

- طرف السفارة الأمريكية، وأكرر لك الشكر.

وللمرة الثانية انحنى تحية، واستدار منصرفاً. ورفع جيسوب سماعة التليفون يدعو الكولونيل هوارتون إلى مكتبه، وابتدره جيسوب بقوله: أخيراً بدأت الأمور تتحرك.

- حقاً، وكيف حدث هذا؟

- السيدة بيترتون تريد أن تسافر إلى الخارج.

- أتراها تنوي أن تلحق بزوجها؟

- هذا ما أرجوه. لقد جاءتني مزودة بتقرير طبي ينصحها بالسفر طلباً للراحة والاستجمام.

- تدبير محكم منها.

فقال محذراً: ومع ذلك فقد تكون حقاً مقبلة على انهيار عصبي.

وتساءل هوارتون: هل استطعت أن تنتزع منها شيئاً؟

- مجرد بادرة ضعيفة. بيترتون كتم عن زوجته أنه تناول الغداء في فندق دورسيت مع هذه المرأة المدعوة سبيدر.

فغمغم هوارتون قائلاً: أتعتقد أن لهذا صلة باختفائه؟

- ربما، فقد سبق أن استجوبت كارول سبيدر أمام لجنة النشاط المعادي لأمريكا، وإن كانت قد استطاعت أن تثبت براءتها.

وتساءل هوارتون: وهل اتصلت السيدة بيترتون بأحد فأصدر إليها تعليماته بالسفر إلى الخارج؟

- لم يزرها أحد في بيتها، وإن كانت قد تلقت بالأمس خطاباً من رجل بولندي هو ابن خالة بيترتون الأولى، وقد كان هنا في مكتبي منذ قليل يستفسر عما لديّ من أنباء.

- أيكون هو الذي حرضها على السفر؟

- هذا محتمل، وإن كنت لا أدري الحقيقة.

- وهل تنوي أن تضعه تحت المراقبة؟

أجاب جيسوب: بل لقد وضعته فعلاً، فقد دققت الجرس السري مرتين بمجرد خروجه من مكتبي.

فضحك هوارتون قائلاً: يا لها من رموز سرية تفيد في حالات الاستعجال! وإلى أية جهة تنوي بيترتون أن تسافر؟ إلى سويسرا؟

- بل إلى مراكش أو إسبانيا.

وقلب جيسوب بطرف إصبعه التقارير المكدسة أمامه وقال: هذان هما البلدان الوحيدان اللذان لم يرد إلينا منهما تقرير عن بيترتون. ثم تراخى في مقعده وأسند رأسه على ظهر المقعد وهو يقول: أنا لم أقم بعطلة منذ شهور، ولعل مما يفيد صحتي أن أسافر إلى الخارج في هذه الأيام.

فضحك هوارتون وقال: طبعاً إلى مراكش أو إسبانيا، وفي أعقاب السيدة بيترتون.

والتقت نظراتهما في تفاهم كامل.

* * *

الفصل الثالث

"انتبهوا، انتبهوا، شركة إيرفرانس، الرحلة رقم ١٠٨ إلى باريس".

نهض الجالسون في قاعة الانتظار في مطار هيثرو وتقاطروا متجهين إلى الباب يقصدون الطائرة التي ستقلهم إلى باريس، وتناولت هيلاري كرافن حقيبة سفرها الصغيرة الحجم وانضمت إلى موكب المسافرين. كان الجو بارداً لاذعاً في ساحة المطار، وشدت هيلاري معطفها الفراء حول عنقها تقي نفسها لسعات البرد وهي تتبع المسافرين إلى حيث تستقر الطائرة.

إذن فقد انتهى الأمر. ها هي منطلقة هاربة بعيداً عن الاكتئاب والبرد والبؤس المميت، هاربة إلى الشمس المشرقة والسماء الزرقاء الصافية، إلى حياة دافقة، وستطرح ورائها كل الهموم والأثقال، هذه الهموم المتسمة بالبؤس والقلق.

تابعت طريقها إلى ممر الطائرة واستقرت على المقعد الذي أرشدتها إليه المضيفة، ولأول مرة منذ شهور خالجها

شعور بالراحة من العذاب الذي أمضها بقسوة، حتى لقد أحسّت منه بما يشبه الألم الجسماني. وتمتمت تحدث نفسها في أمل ورجاء: سأهرب، سأبتعد. نعم، سأبتعد! وانتزعها من خواطرها هدير الطائرة الصاخب، ولكنها ما لبثت أن عادت تردد في نفسها: الآن سأذهب وأبتعد.

وبدأت الطائرة تنزلق على أرض الممر وقد شد المسافرون أحزمة الأمان على بطونهم، ودارت الطائرة نصف دورة في ساحة المطار، ثم توقفت تنتظر إشارة الرحيل. وخطر لها: ما يدريني أن الطائرة قد تتحطم، وعندها قد تكون تلك النهاية، الحل الموفق لكل شيء! وخيّل إليها أنهم انتظروا في ساحة المطار وقتاً طويلاً لا ينتهي، مترقبين إشارة الرحيل إلى الحرية. همست تخاطب نفسها: يبدو أنني لن أسافر أبداً، سأظل هنا حبيسة لا أستطيع الفرار!

وأخيراً هدرت المحركات من جديد وبدأت الطائرة تجري على الممر الممهد المرصوف. أسرع، ثم أسرع، ثم أسرع، ولكن من يدري؟ ربما لن تعلو في الجو، أتكون هذه إذن هي النهاية؟ ولكن الطائرة أخذت تعلو في الجو، وبدؤوا يبتعدون عن سطح الأرض وبدا كل شيء صغيراً ضئيلاً، حتى الهموم تضاءلت وانكمشت وحتى القلق تبدد وتوارى، وبدت الأبنية والسيارات كأنها لعب أطفال. الآن كانوا فوق السحب البيضاء المشوبة بمسحة رمادية. لا بد أنهم الآن فوق القنال الإنجليزي.

أرخت هيلاري جفونها، وأطبقت عينيها، وأسندت رأسها إلى ظهر المقعد. الهرب! الهرب! فها هي قد غادرت إنجلترا

إلى غير رجعة. ها هي قد تركت خلفها ناجيل، وتركت تلك البقعة الحزينة المقبضة التي هي قبر بريندا. كل ذلك تركته خلفها بعيداً، بعيداً. فتحت هيلاري عينيها وعادت تطبقهما مرة أخرى، ثم ما لبث النعاس أن طغى عليها واستغرقت في النوم.

* * *

عندما صحت هيلاري من نومها كانت الطائرة في طريقها إلى الهبوط. لا بد إذن أنهم قد وصلوا إلى باريس. وتركت كرسيها وحملت حقيبتها ونزلت من الطائرة إلى سيارة المطار، ولكنها لم تكن باريس تلك التي نزلوا فيها. أتت المضيفة الجوية إلى السيارة وتحدثت إليهم بذلك الصوت الناعم الحنون المأثور عن المضيفات: "لقد اضطررنا أن نهبط في بوفيه لأن الضباب كثيف في باريس". ونظرت هيلاري من وراء زجاج السيارة ولكن الرؤية كادت تستحيل عليها، فقد كانت بوفيه هي الأخرى غارقة في الضباب. وتوقفت بهم السيارة أمام مبنى خشبي عتيق ليس فيه إلا بضعة مقاعد وأرائك من الخشب، وطغى على هيلاري شعور بالانقباض حاولت أن تدفعه عن نفسها، وغمغم الرجل الجالس قربها: إنه مطار قديم بلا تدفئة ولا يوجد فيه شيء من وسائل الراحة.

وتتابعت الساعات دون أن يقع جديد، فيما عدا طائرات تنبثق متتابعة من أستار الضباب وتحط متزاحمة على أرض المطار الصغير. وتكدست القاعة بمسافرين حانقين متذمرين من التأخير الذي طرأ على رحلاتهم، وأخيراً عندما هبط الليل أتت الحافلات لتحمل المسافرين إلى باريس. كانت رحلة

مملة مضجرة، انحشر الركاب في السيارات أربع ساعات إلى أن شارفوا ضواحي باريس وبلغوها عند منتصف الليل، وأسعد هيلاري أن تحمل حقيبتها وتستقل سيارة أجرة وتمضي إلى فندق حجزت فيه إحدى الغرف. وكانت متعبة مكدودة تهفو إلى حمام ساخن تلوذ بعده بالفراش.

وكان مقرراً أن تبرح الطائرة المسافرة إلى كازابلانكا مطار أورلي في العاشرة من صباح اليوم التالي، بيد أن مطار أورلي في ذلك الصباح المعهود كان خلية من الفوضى والارتباك، مسافرون يروحون ويغدون، موظفون يدخلون ويخرجون، حمالون يجيئون ويذهبون، والطائرات مرصوصة على أرض المطار مكدسة متزاحمة، إذ كان هناك تأخير في مواعيد السفر بسبب الضباب. قال لها موظف الاستعلامات: مستحيل يا سيدتي أن تسافري على الطائرة التي سبق أن حجزت لنفسك فيها مقعداً، فأرجوك أن تنتظري في قاعة الاستراحة حتى يخلو مقعد في طائرة أخرى.

وعلى مضض مضت إلى قاعة الانتظار تنتظر مقعداً يخلو، وبعد ساعة قيل لها إن هناك مقعداً خالياً بالطائرة المسافرة إلى داكار وفي الطريق إليها تهبط في كازابلانكا، وإن كانت سوف تصل إليها متأخرة ثلاث ساعات عن الموعد الذي كانت ترجوه. قال الموظف: هذا كل ما أستطيع فعله لأجلك يا سيدتي.

تقبلت هيلاري كرافن المقعد المعروض عليها بغير تذمر واحتجاج، دون أن تتشبث بالمقعد الذي سبق أن حجزته

على الطائرة المتجهة أصلاً إلى كازابلانكا. وحين هبطت في كازابلانكا همس الحمال الذي أخذ حقائبها: إنك لمحظوظة يا سيدتي أن أتيت بهذه الطائرة الإضافية بدلاً من طائرة كازابلانكا الأصلية التي كان مفروضاً أن تصل قبل هذه، فقد تحطمت ومات طاقمها ومعظم الركاب، ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا أربعة أشخاص أو خمسة نقلوا إلى المستشفى مصابين بإصابات جسيمة.

كان أول رد فعل في نفسها أن طغى عليها شعور جارف بالغضب، وعلى غير وعي منها اصطخب داوياً في رأسها هذا السؤال: يا إلهي! لمَ لم أكن أنا في هذه الطائرة؟ لو أنني كنت فيها لانتهى كل شيء، لا قلق ولا أحزان ولا هموم. ألا ليتني كنت فيها! إن الذين استقلوا تلك الطائرة كانوا متشبثين بالحياة، أما أنا فكم كنت أرحب بالموت!

وأنهت إجراءاتها الجمركية في دقائق قليلة ومضت إلى إحدى سيارات الأجرة فذهبت إلى فندقها، وفي غرفتها فتحت النوافذ وأطلت على المدينة. كانت السماء صافية زرقاء والشمس مشرقة فياضة بالضوء. كان هذا ما ترجوه. كانت هذه هي الحياة التي سعت إليها، الفرار والهرب بعيداً عن إنجلترا. بيد أنها في هذه اللحظة اعتصرت قلبها يد باردة ساحقة، فقد أدركت في صدمة هزت كيانها أن الأمر هنا لا يختلف عما كان في إنجلترا... لا مهرب ولا فرار! كان قبر بريندا في إنجلترا، ونايجل سوف يتزوج امرأة جديدة في إنجلترا. فلماذا توهمت أنها سوف تنسى هذا وهي هنا في مراكش؟ إن الذكريات تلاحقها والماضي يجري في أعقابها، ولا شيء يمكن أن

يجعلها تنسى. إن الخلاص الوحيد هو حبوب منومة تفرغ منها في أحشائها قنينة كاملة.

وانبعثت واقفة وقد استقر رأيها على أن تبادر إلى الصيدلية، ففيها شفاؤها من المتاعب والهموم والأحزان. مضت إلى الخارج مسرعة كي تعود بما يجعلها تنام، تلك النومة الأبدية المريحة التي تهفو إليها.

* * *

كانت هيلاري كرافن تعتقد أن من السهل شراء الحبوب المنومة في البلاد الأجنبية، ولكنها لدهشتها ما لبثت أن أدركت أنها مخطئة في ظنونها، فقد رفض الصيدلي أن يزودها إلا بحبتين اثنين، وقال لها أن عليها إن شاءت المزيد أن تأتيه بوصفة طبية. فشكرته هيلاري ودست في حقيبتها الحبتين. وفيما هي تغادر الصيدلية كادت تصطدم برجل طويل القامة حاد السمات، فاعتذر لها بأدب بالإنجليزية. وسمعته وهي تنصرف يسأل الصيدلي عن معجون أسنان، وأحست بغصة انقبض لها قلبها، فقد كان المعجون الذي طلبه من نفس الماركة التي يؤثر نايجل استعمالها.

عبرت الطريق إلى الصيدلية المقابلة، وأتبعتها بغيرها حتى اكتملت أربعاً، ولفت نظرها أن لمحت في الصيدلية الثالثة نفس الرجل الحاد السمات ذي الوجه الشبيه بوجه البومة، وكان يسأل عن نفس معجون الأسنان الذي طلبه في الصيدلية الأولى. عادت هيلاري إلى فندقها فأبدلت ملابسها

ونزلت تتناول العشاء وقد كادت القاعة تقفر من النزلاء، ولكنها لمحت رجل معجون الأسنان جالساً إلى مائدة ملاصقة للجدار يتناول طعامه وقد نشر أمامه صحيفة فرنسية واستغرق في قراءتها. أمرت لنفسها بطعام شهي وأقبلت تأكل وتشرب بنهم وهي تردد في نفسها: وبعد، فتلك هي المغامرة الأخيرة وينتهي كل شيء.

ثم صعدت إلى الغرفة وقد فرغت من الطعام، فأغلقت الباب وراءها بالمفتاح وتناولت اللفافات الأربع التي أتت بها من الصيدليات وفضتها، وأخذت منها الحبوب المنومة ووضعتها على المنضدة أمامها ومضت تتأملها بصمت. لم تكن مترددة أو خائفة، فذلك هو سبيل الخلاص. ذلك أخيراً هو الفرار، الفرار الحقيقي، والأمر بعد هين بسيط، تبلع الحبوب وتزدردها بجرعة من الماء ثم تستلقي على الفراش وتنام ثم لا تستيقظ أبداً من النوم! لم يكن في نفسها وازع يردعها عما هي بسبيله، فقد أتت وفاة بريندا على كل ما بنفسها من شعور ديني فليس ثمة شيء له عندها قيمة أو أهمية. نعم، إنها الآن بلا قيد يعرقل خطاها، متأهبة للشروع في رحلتها إلى المصير المجهول.

ومدت يدها وتناولت الحبة الأولى ورفعتها إلى فمها، وفي تلك اللحظة طُرق باب الغرفة بنقرات خفيفة. قطبت هيلاري جبينها وتجمدت يدها في الهواء قبل أن تبلغ فمها، ولكنها لزمت مكانها لا تفتح الباب، فمهما يكن من أمر فهي لن ترد عليه فلا يلبث أن ينصرف. لكن الطرقات عادت تدق الباب من جديد، وفي هذه المرة كانت بصوت أشد وأعلى،

وفجأة اتسعت عيناها دهشة وهما مستقرتان على الباب. رأت المفتاح في ثقب القفل من الداخل يدور حول نفسه ثم يقفز من ثقبه إلى الأرض مرسلاً رنيناً معدنياً، ثم رأت مقبض الباب يتحرك ويدور. ثم انفتح الباب، وإذا برجل يدلف إلى الغرفة، وعرفت فيه على الفور ذلك الرجل الحاد السمات الذي رأته من قبل مرتين في الصيدلية يشتري معجوناً للأسنان ثم رأته يتناول بعد ذلك عشاءه في الفندق.

استدار الشاب وأغلق الباب وتناول المفتاح من على الأرض ودسه في الثقب وأوصده، ثم جاء عبر الغرفة إليها واستوى على أحد المقاعد جالساً وقال في بساطة: إنني أدعى جيسوب.

تضرج وجه هيلاري احمراراً، ومالت إليه عبر المنضدة التي بينهما وفي صوت يخالطه الغضب سألته: هل لي أن أسألك عما أتيت تفعله في غرفتي؟

فحدجها بنظرة طويلة ثاقبة وقال يسأل: ما أعجب هذا! أنا الذي أتيت أسألك عما تفعلين أنت في غرفتك؟

فحملقت فيه باستغراب وتساءلت: لا أفهم ما تعني؟!

فأدار رأسه يتأمل الحبوب المنومة على المنضدة، ثم تطلع إليها قائلاً: لو كنت مكانك لما فعلت هذا، فليس الأمر كما تظنين. أنت تحسبين أنك تتناولين الأقراص وتستغرقين في النوم ثم لا تنهضين أبداً، ولكن ما سوف يحدث شيء غير هذا تماماً، فسوف تعانين أعراضاً أليمة وتقلصات وقيئاً وآلاماً

تمزق الأمعاء، وإذا كانت طبيعة جسمك مقاومة للمخدرات فإن أثر الحبوب المنومة لا يبدأ إلا بعد فترة طويلة، وفي خلال هذه الفترة يعثرون عليك ويحاولون إنقاذك وتتعرضين لأشياء مؤلمة: غسيل معدة وزيت خروع... كما يهزونك بعنف ويلطمون وجهك حتى تستفيقي. فهل أنت مستعدة لهذا؟

تراخت السيدة كرافن في جلستها واغتصبت ابتسامة خفيفة وقالت: يا لها من فكرة سخيفة! إذن فأنت تتخيل أنني كنت أنوي الانتحار؟

- أنا لا أتخيل، ولكني على يقين. فقد دخلت إلى الصيدلية لأشتري معجوناً للأسنان حين كنت هناك تطلبين حبوباً منومة، ولما لم أجد النوع الذي أريده ذهبت إلى صيدلية أخرى فإذا بكِ أمامي تشترين حبوباً للمرة الثانية، وبدا لي الأمر غريباً فرأيت أن أتعقب خطواتك لأرى ما يكون من أمرك. وطبعاً لم يكن من العسير عليّ بعد ذلك أن أتكهن بما تنوين.

- قد تقدر أن تمنعني الآن من الانتصار وقد تقذف بالحبوب من النافذة، ولكنك لن تقدر أن تصدني غداً عن شراء حبوب أخرى أو أن ألقي بنفسي إلى الطريق من سطح عمارة عالية أو أن أرتمي أمام قطار مسرع.

- أنت تحاولين أن تنتحري اليوم، هذا صحيح. ولكن إذا جاء الغد ثاب المنتحر إلى رشده وعاوده صوابه. هذا عادة ما يحدث للمنتحرين.

- هذا إذا أقدم المنتحر على فعلته وهو في فورة يأس

مفاجئ. أما أنا فقد تدبرت الأمر في هدوء وبرود حتى استقر عليه عزمي. ألا تعلم يا سيد جيسوب أنني امرأة ليس لديها ما تعيش من أجله وما يجعلها تتشبث بالحياة؟ ثم أردفت: زوجي الذي همت به حباً هجرني، وابنتي الوحيدة التي أعبدها ماتت بالالتهاب السحائي، وأنا امرأة بلا أصدقاء أو أقارب وليس لي هواية تستهويني أو عمل يشغلني، فلماذا إذن أعيش؟

وبعد فترة قصيرة رفعت رأسها قائلة: والآن يا سيد جيسوب هل لك أن تنصرف وتتركني لشأني؟

- لم يحن الوقت، فأنا لم أفرغ بعد من حديثي. ثم استطرد على عجل: الآن عرفت أنك كارهة لدنياك غير متشبثة بالحياة وأنك تنوين الانتحار، ولكن الذي أتساءل عنه هو: لِمَ آثرتِ الحبوب المنومة وسيلة للانتحار؟

فبدت الدهشة في عينيها وتساءلت: ماذا تقصد؟

- لقد عرفنا أن الحبوب المنومة غير مضمونة النتيجة فضلاً عما يصاحبها من آلام، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الارتماء تحت القطار أو إلقاء نفسك من مبنى مرتفع، فقد تصابين بعاهة أو بالشلل أو ببتر ذراعك أو ساقيك، ولكنك ستعيشين. هناك عدة طرق أخرى للانتحار أنجح وأضمن.

- طرق أخرى؟!

- طبعاً، طرق أخرى حافلة بالإثارة والمتعة. ومع ذلك فلست أكتمك أنك قد تنجين من الموت، ولكنك على الأقل ستجدين فيها تسلية وطرافة تشغل فراغك وتبدد همومك.

فهزت رأسها في حيرة وتساءلت: الحق أنني لا أدري فيم تتحدث.

ولاذ بالصمت برهة ثم أردف: لكي تدركي ما أريد لا بد أن أروي لك قصة صغيرة، فهل لك أن تعيريني سمعك؟

- أنا مصغية إليك، فهات ما عندك.

- أنك طبعاً تطالعين الصحف، ولا بد أنك قد قرأت عن حوادث اختفاء بعض العلماء في الشهور الأخيرة، وكان آخرها اختفاء عالم الذرة توماس بيترتون.

قالت هيلاري: نعم، لقد قرأت شيئاً عنه في الصحف.

استطرد جيسوب: نحن في بلد حر، ولمن شاء أن يرحل أنى شاء، ولكن في مثل هذه الظروف يجب أن نعرف لماذا اختفى هؤلاء القوم وأين ذهبوا وكيف؟ هل اختفوا طواعية واختياراً من تلقاء نفسهم أم أنهم قد أُجبروا على الذهاب، أو اختطفوا، أو هددوا؟ وما هو الطريق الذي سلكوه في سفرهم، وما هي المنظمة التي تتولى أمرهم، وما هو الهدف الذي ترمي إليه المنظمة؟ إننا نسعى إلى رد شاف على هذه الأسئلة، ولعل في مقدورك أنت أن تساعدينا على الحصول على جواب على هذه الأسئلة.

- أنا؟ ولكن كيف، ولماذا؟

قال جيسوب: منذ شهرين اختفى توماس بيترتون فجأة وهو في باريس تاركاً امرأته في لندن، وقد نزل اختفاؤه عليها

نزول الصاعقة، أو كذلك ادعت وزعمت. وقد أقسمت على أنه ليس لديها أية فكرة عن مكانه وأنها لا تعرف من الأمر شيئاً، وقد تكون صادقة في أقوالها أو كاذبة، وأنا من الذين يعتقدون أنها كاذبة. وتابع جيسوب الحديث قائلاً: لقد وضعنا السيدة بيترتون تحت المراقبة الدقيقة، ومنذ أسبوعين جاءت تزورني في مكتبي وذكرت لي أن طبيبها أمرها بأن تسافر إلى الخارج للراحة والاستجمام لأنها ضاقت بأصدقائها وأقاربها والمخبرين الصحفيين الذين لا يفتؤون يلحون بالسؤال عن زوجها وكيف اختفى، حتى لقد كادت تصاب بانهيار عصبي. وبالأمس غادرت السيدة بيترتون إنجلترا إلى كازابلانكا.

قالت متبرمة: ولكن ما شأني أنا بكل هذه القصة؟

فأجاب جيسوب باسماً: إن لك شأناً كبيراً لأن شعرك أحمر.

- ماذا تقصد؟

- أهم ما يميز السيدة بيترتون هو شعرها الأحمر النحاسي، وأهم ما يميزك أنت أيضاً نفس الشعر النحاسي.

- فليكن، مجرد صدفة. ولكن ما أهمية ذلك؟

- أهميته أن طائرة كازابلانكا التي سافرت فيها السيدة بيترتون قد تحطمت وقُتل معظم من فيها، أما هي فأخرجت من تحت الأنقاض، وما تزال على قيد الحياة وقد نقلت إلى المستشفى، ولكن الأطباء يرون أنها لن تعيش إلا حتى صباح اليوم.

وظلت هيلاري تتابعه بعينين تتساءلان عما يبغي منها. واستطرد جيسوب قائلاً: غداً ستلفظ السيدة بيترتون أنفاسها الأخيرة، ولكنها مع ذلك ستواصل رحلتها لأنك ستتقمصين شخصيتها وتنتحلين اسمها.

ظلت هيلاري تحملق فيه كالمشدوهة فاغرة فمها، ثم قالت: ولكنهم طبعاً سيعرفون في الحال أنني لست السيدة بيترتون؟

– هذا يتوقف على الذين سيقابلونك، وهل سبق أن رأوا السيدة بيترتون من قبل؟ إن مثل هذه المنظمات تعمل عادة على أسلوب الخلايا المستقلة، فكل خلية مكونة من ثلاثة أو أربعة أشخاص لا يعرفون الخلية الأخرى، حتى إذا وقعوا في يد الشرطة استحال عليهم أن يشوا بالآخرين لأنهم لم يروهم من قبل. ومعنى هذا أن الذين سوف تلتقي بهم السيدة بيترتون لا يعرفون عنها إلا أنها ذات شعر أحمر نحاسي وعينين زرقاوين خضراوين وطولها خمسة أقدام وسبع بوصات، وليست لها علامات مميزة. هذه هي الأوصاف المدونة في جواز سفرها، ومن حسن الحظ أن هذه الأوصاف جميعاً تنطبق عليك.

قالت معترضة: ولكني لا أكاد أعرف شيئاً عن السيدة بيترتون.

– سنزودك بما يكفي من المعلومات، وسندبر الأمر على النحو التالي: ستدخلين المستشفى، وعندما يحين القضاء وتموت السيدة بيترتون ستحلين مكانها وتنتحلين اسمها، أما هي فتدفن متخذة اسمك أنت. أي سيقال أن التي ماتت

هي أنت، أما السيدة بيترتون فنجت من الموت بعد إصابتها بارتجاج في المخ في كارثة طائرة. وهذا يتيح لك فرصة التخلص من المآزق التي قد تقعين فيها بأن تتظاهري بفقدان الذاكرة من حين لآخر. ومع ذلك فقد ينكشف سرك وتقتلين، ولكني أحسبك لا تبالين بالموت ما دمت لا تقيمين وزناً للحياة وتنشدين الانتحار، فما رأيك؟ أتقبلين هذه المهمة؟

ودون تردد أجابت هيلاري كرافن: ولمَ لا؟ لقد قبلت أن أكون السيدة بيترتون.

فقال جيسوب: إذن هيا بنا، فلا وقت لدينا نضيعه.

* * *

الفصل الرابع

على مقعد حديدي صلب جلست هيلاري كرافن بجانب الفراش الذي ترقد عليه أوليف بيترتون معصوبة الرأس بالضمادات غائبة عن الوعي، وعلى الناحية الأخرى من السرير وقفت إحدى الممرضات والطبيب يتأملان المصابة. أما جيسوب فكان جالساً في ركن من الغرفة. وتحول الطبيب إلى جيسوب قائلاً بالفرنسية: لن يطول الأمر، فإن النبض ضعيف جداً.

- ولكن هل تموت قبل أن تسترد وعيها؟

- هذا ما أستطيع أن أقطع به، ربما استردت وعيها في اللحظات الأخيرة.

- ألا تستطيع أن تعطيها منبهاً؟

هز الطبيب رأسه نفياً وغادر الغرفة والممرضة في أعقابه. وقال جيسوب يخاطب هيلاري كرافن: لكم كنت أتمنى أن تسترد وعيها ولو لحظات حتى أحصل منها على شيء من المعلومات، أي شيء. مجرد كلمة عابرة، مجرد إشارة أو كلمة السر. حاولي أن تنصتي إليها جيداً وإذا تكلمت فحاولي

أن تستدرجيها، فقد تنطق بشيء حتى في غيبوبتها.

سألته: وهل نصارحها بأنها تحتضر وأنها لن تعيش؟

لا أدري، يجب أن أفكر في هذا.

* * *

مضت هيلاري تتأمل المرأة الراقدة على الفراش. ترى هل جاءت حقاً إلى مراكش لتقابل ذلك الزوج الذي اختفى أم أنها كانت موشكة على الانهيار فجاءت تنشد الراحة والاستجمام؟ ومر الوقت حتى انقضت ساعتان، ثم فتح الباب وجاء الطبيب يعود مريضته مرة أخرى. جس نبضها ثم قال: هناك بعض التغير وإن كان كل شيء يوشك أن ينتهي.

وتململت المريضة في فراشها قليلاً، وفتحت عينيها لتجد نفسها تتطلع مباشرة في عيني هيلاري. ثم عادت وأطبقتهما من جديد وهمست في صوت لا يكاد يسمع: أين أنا؟

وفي رفق أخذ الطبيب بيدها وأجاب: أنت في المستشفى يا سيدتي، لقد وقع حادث للطائرة.

فردت هامسة: الطائرة؟

سألها الطبيب: أتريدين أن تتصلي بأي شخص هنا في كازابلانكا؟ إننا نستطيع أن نبلغه أية رسالة منك.

فرفعت إلى الطبيب عينين باديتي الألم وردت: لا. ثم عادت من جديد إلى هيلاري وتساءلت: من... من أنت؟

مالت هيلاري فوقها، وفي صوت جلي واضح النبرات قالت: أنا قادمة لتوي من إنجلترا على إحدى الطائرات، فإذا كان في وسعي أن أفعل أي شيء لأجلك فأخبريني على الفور.

- لا شيء، لا شيء، إلاّ إذا...

وصمتت، وتطلع الطبيب إلى المرأتين ثم مضى يغادر الغرفة، وفي أعقابه الممرضة. وخلت المرأتان كل إلى صاحبتها، وبدا أن السيدة بيترتون تجاهد لكي تنطق بشيء، فقالت: أخبريني، أخبريني، هل... هل...؟

أدركت هيلاري دون عناء ما تسأل عنه السيدة بيترتون فأجابت: نعم، أنت تحتضرين. أهذا هو ما تريدين أن تسألي عنه؟ والآن سأحاول أن أتصل بزوجك، فهل تريدين إبلاغه رسالة منك؟

فردت المرأة التي تحتضر: أخبريه... أخبريه... أن يكون على حذر. بوريس... بوريس... بوريس شخص خطير.

وتسارعت أنفاسها لاهثة وتنهدت، ومالت هيلاري فوقها تسألها: أيمكنك أن تذكري لي شيئاً يساعدني في رحلتي، أي شيء يمكّنني من الاتصال بزوجك؟

- الثلج...

واستبدت الحيرة بهيلاري، وجعلت تردد الكلمة في دهشة: الثلج؟ الثلج؟

ومضت تكررها دون أن تفقه المقصود منها، فلاحت

على شفتي المحتضرة ابتسامة واهنة، ثم ضحكت ضحكة مخنوقة لا تكاد تسمع وانفرجت شفتاها عن أغنية شائعة من أغنيات الطفولة:

الثلج، الثلج، الثلج الجميل...
تدوسين على قطعة منه وتنزلقين،
ثم تذهبين، تذهبين.

أخذت المحتضرة تردد بصوتها الواهن الضعيف: تذهبين... تذهبين. اذهبي وحدثيه عن بوريس. أنا لا أصدق هذا، لا أستطيع أن أصدق... ولكن ربما كان صحيحاً. إذا كان... فيجب أن يكون على حذر.

ثم اختلجت العينان واختلجت الشفتان، وماتت أوليف بيترتون.

* * *

كانت الأيام الخمسة التالية أياماً مضنية مرهقة. لزمت هيلاري كرافن في المستشفى غرفة خاصة لا تبارحها منهمكة في تلقي دروسها، وفي كل مساء تمتحن فيما لُقنته طوال ساعات النهار. فعلى ورقة أمامها سُطّرت كل المعلومات التي يعرفونها عن حياة أوليف بيترتون، وكان على هيلاري أن تعيها في ذاكرتها.

المنزل الذي كانت تسكنه أوليف، الخدم الذين عملوا لديها، أسماء الأقارب والأصدقاء واسم كلبها المدلل وطائر الكناريا. كل التفاصيل الخاصة بحياتها خلال الستة شهور

الماضية منذ تزوجت. حفلة القران وأسماء الوصيفات. ما الذي كانت تفضله السيدة بيترتون من طعام وشراب...

وضاقت السيدة هيلاري بكثرة ما لُقنت، فسألت جيسوب: وهل لهذا كله أهمية؟

- ربما نعم، ربما. ولكن ينبغي أن تكوني متأهبة لكل المفاجآت، فقد تباغتين بسؤال، أي سؤال، فيجب أن يكون الرد حاضراً دون أي تفكير أو تردد.

وأخذ يلقنها دروساً في الشفرة وفي الكتابة السرية وفي وسائل الاتصال الخفية. وأخيراً أبدى جيسوب رضاه وارتياحه قائلاً: أنت في الحق تلميذة نجيبة يمكن الركون إليها، وأحب أن أذكر لك أنك لن تكوني منعزلة عنا فسوف نكون أقرب لك من ظلك في معظم الأوقات.

تساءلت هيلاري: وماذا يكون من أمري عندما أبلغ نهاية المنعطف، أي عندما أرى نفسي وجهاً لوجه أمام توماس بيترتون؟

فهز جيسوب رأسه بجدية وقال: هنا موضع الخطر. إذا سارت الأمور على الصورة التي نتخيلها فسنكون بجانبك، نحميك ونذود عنك، ولكن يجب أن أذكّرك بما سبق أن قلته لك، وهو أن المخاطرة هي أساس هذه المهمة، فمن المحتمل أن ينكشف أمرك فيكون القتل مصيرك.

ثم أردف: بعد خروجك من المستشفى ستنزلين في نفس الفندق الذي حجزت فيه السيدة بيترتون غرفة لها، وسوف

ترتدين ملابسها وتنسقين شعرك على الطراز الذي اعتادته. وقد عهدنا إلى طبيب من أطباء التجميل أن يدرس وجهك وأن يلصق عليه بعض رقائق من البلاستيك تجعلك أقرب شبهاً إلى أوليف بيترتون، وحتى إذا فطن أحد إلى التحامها فسوف يعزو هذه الآثار إلى حادث الطائرة.

تأملته هيلاري بنظرة تقدير وإعجاب وقالت: الحق أنك دقيق في عملك لا تغفل شيئاً.

- هذا واجبي، لأن أتفه الهفوات كفيلة بأن تفسد أدق التدبيرات. والآن أرجو أن تقصّي عليّ ما حدث بينك وبين أوليف بيترتون. هل تلفظت بشيء قبل أن تموت؟

روت له ما سمعته من المرأة التي كانت تحتضر وقالت: وأهم ما رددته هو قولها "قولي له إن بوريس شخص خطير".

فقال جيسوب: بوريس؟ لا بد أنها تقصد الميجور بوريس جلايدر، فقد زارني في مكتبي زاعماً أنه ابن عمة زوجة بيترتون الأولى، وأنا لم أكن متأكداً من حقيقة شخصيته، وقد أمرت بتعقبه عند خروجه من مكتبي فذهب لتوه إلى السفارة الأمريكية ثم لم يخرج منها، ويبدو أنه قد تسلل من أحد الأبواب الخلفية.

قالت هيلاري: هل لك أن تصفه لي؟

فأدلى إليها بأوصافه ثم أردف: صدقت السيدة بيترتون، فالميجور بوريس جلايدر شخص خطر.

* * *

الفصل الخامس

في قاعة الاستقبال بفندق سان لويس في كازابلانكا جلست ثلاث سيدات كل منهن منهمكة في شأن يخصها. فالأمريكية السيدة كالفين بيكر جالسة إلى مكتب صغير مقبلة على تسطير بعض الرسائل، والإنجليزية الآنسة هيذرنجتون متراخية في مقعد ضخم وبين يديها إبرة التريكو تطرز سترة من الصوف من النوع الذي تألف السيدات الإنجليزيات ارتداءه. أما الفرنسية الآنسة جين ماريكو فكانت تجلس بجانب إحدى النوافذ تنظر إلى الخارج وهي تتثاءب من حين لآخر أو تدير بصرها إلى المرأتين بضيق وملل. كانت الآنسة هيذرنجتون والسيدة بيكر قد أمضيتا بضع ليالٍ تحت سقف فندق سان لويس فتمّ بينهما التعارف، ذلك أن السيدة كالفين بيكر بسجيتها الأمريكية المتآلفة كانت لا تفتأ تتحدث إلى أي إنسان بسماحة وانطلاق.

وبرز في مدخل القاعة فرنسي تبدو عليه سمة رجال الأعمال، ثم ارتد عنها راجعاً حين رآها تكاد تبدو خالية، وقد ألقى على جين ماريكو نظرة أسف. وأخذت الآنسة هيذرنجتون تعد الغرز التي طرزتها ثم همست تخاطب نفسها: والآن ما هو نوع الغرزة التالية؟

وصلت امرأة أخرى طويلة القامة حمراء الشعر، فأطلت على الغرفة وبدا عليها التردد قليلاً، ثم استدارت تسير في الممشى إلى قاعة الطعام. وانتبهت السيدة كالفين والآنسة هيذرنجتون مما كانتا فيه، ودارت السيدة بيكر حول المكتب الذي كانت تجلس إليه وهمست في رنة من الانفعال: أرأيت يا آنسة هيذرنجتون هذه المرأة ذات الشعر الأحمر التي أطلت على الغرفة ثم انصرفت؟ إنهم يقولون إنها الوحيدة التي نجت من كارثة الطائرة التي سقطت في الأسبوع الماضي!

قالت الآنسة هيذرنجتون: لقد شاهدتها تأتي بعد ظهر اليوم إلى الفندق في عربة الإسعاف، وقد أخبرني المدير أنها وصلت من المستشفى رأساً. ثم أردفت: ترى هل من الحكمة أن تخرج من المستشفى بمثل هذه السرعة وهي التي كانت مصابة بارتجاج في المخ؟

قالت الأخرى: إن ببعض أجزاء وجهها شريطاً لاصقاً من أثر إصابتها بالزجاج المهشم فيما أظن. إنها لمحظوظة أن نجت من الحريق.

قالت السيدة كالفين: يا لها من مسكينة عانت الأهوال! ترى هل كان زوجها معها؟ وهل لقي حتفه أم نجا من الموت؟

- لا أظن، فقد ورد في الصحف أنه لم ينج من ركاب الطائرة إلا امرأة واحدة ولم يشيروا إلى أن زوجها كان بصحبتها.

- هذا صحيح، وقالوا إنها تدعى السيدة بيفرلي. لا، لا، بل السيدة بيترتون. نعم، هذا هو اسمها.

قالت الآنسة هيذرنجتون وهي تفكر متأملة: بيترتون؟ آه، هذا يذكرني بما قرأته عنه في الصحف. نعم، أنا متأكدة من أن هذا هو اسمه.

قالت الآنسة ماريكو تخاطب نفسها بالفرنسية: ألا تباً لبيير! إنه لا يحتمل ولا يطاق، لكن الصغير جولز لطيف والأب ذو مركز مرموق. فليكن، لقد اتخذت قراري!

وفي خطى رشيقة متأنقة غادرت الآنسة ماريكو قاعة الاستقبال.

* * *

بعد ظهيرة ذلك اليوم الذي ماتت فيه السيدة بيترتون (وكانت قد مرت خمسة أيام على كارثة الطائرة) خرجت السيدة بيترتون المزعومة من المستشفى مستقلة إحدى سيارات الإسعاف إلى فندق سان لويس وهي تبدو عليلة شاحبة الوجه، وعلى وجهها الضمادات والأربطة والشريط اللاصق.

اتصلت هيلاري باستعلامات الفندق وسألت عما إذا كانت هناك رسائل باسمها فأجيبت بالنفي. وكان عليها وهي تنتحل شخصية أوليف بيترتون أن تتصرف بحرص وحذر وألا تقدم على أية خطوة إلا بعد تأنٍ وروية. من المحتمل أن تكون أوليف بيترتون قد تلقت تعليمات بأن تتصل برقم معين أو بشخص معين في كازابلانكا، فكيف لها أن تهتدي إلى ذلك؟ إن كل ما لديها لا يعدو جواز سفر أوليف بيترتون وخطاب ضمان مالي ودفتر الشيكات السياحية الصادر من شركة كوك وإخطارات

الحجز بالفنادق، وهذه عبارة عن يومين في كازابلانكا وستة أيام في فزان وخمسة أيام في مراكش. وطبعاً انقضت هذه الأيام وفات موعدها بسبب حادث الطائرة، ولكن لا بد أن هناك من سيجددها مرة أخرى، فعليها أن تنتظر وتترقب. أما خطاب الضمان المالي وجواز السفر فقد تولى أمرهما السيد جيسوب، فذيل الخطاب بتوقيع مزور لأوليف بيترتون ونُزعت من الجواز صورة أوليف وحلت مكانها صورة هيلاري كرافن.

هكذا استقر الأمر لهيلاري كرافن. والآن عليها أن تؤدي دورها باطمئنان، وإذا ألفت نفسها موشكة أن تنزلق إلى مأزق فليس أسهل من أن تتشبث بطوق النجاة فتزعم أنها قد فقدت ذاكرتها أو بعض ذاكرتها نتيجة لإصابتها بارتجاج في المخ.

لاذت هيلاري بغرفتها أربع ساعات كاملة، إذ المفروض لمن كان في مثل حالتها لم يغادر المستشفى إلا منذ لحظات أن يستريح ويستجم، ولكنها خلال هذه الساعات جعلت تستعيد في ذهنها كل ما درسته عن حياة أوليف بيترتون من دقائق وتفصيلات حتى لا تفاجأ بسؤال تعييها الإجابة عليه فتنكشف خدعتها بانتحال شخصية غيرها. وأخيراً تجملت قليلاً ونزلت إلى قاعة الطعام لتناول العشاء، وما إن تراءت في مدخل القاعة حتى انتهبتها الأنظار من كل صوب، وفطنت إلى همسات خافتة ترددت في أرجاء القاعة، بل قد تبادرت إلى مسامعها بعض العبارات ترددها الحاضرات.

جاءت امرأة قصيرة القامة متوسطة العمر تميل إلى البدانة وسحبت مقعداً أدنته منها وأنشأت تكلمها بلهجة أمريكية

واضحة: معذرة أن طرحت عليك سؤالاً، ألست أنت السيدة التي نجت بمعجزة من كارثة الطائرة؟

نحت هيلاري المجلة التي كانت تتصفحها وردت: نعم.

- يا إلهي! كانت كارثة رهيبة، كانت كارثة رهيبة. يقال إن ثلاثة فقط هم الذين نجوا من الحادث، أليس كذلك؟

- بل اثنان، فقد مات أحد الثلاثة في المستشفى.

- رباه! إنني لم أسمع بهذا بعد يا آنسة... يا سيدة...

قالت هيلاري: السيدة بيترتون.

تابعت الأمريكية تسألها: لكن أين كان مقعدك عند وقوع الحادث؟ أعني في مقدمة الطائرة أم عند ذيلها؟

كانت هيلاري قد لقنت الرد على هذا السؤال وهي تتلقى دروس المعلومات التي قد تحتاج إليها في انتحال شخصيتها الجديدة، فردت: بل في المؤخرة.

- يقولون إن هذا هو أسلم مكان في الطائرة إذا ما وقع لها حادث. إنني أصر دائماً على الجلوس في المؤخرة.

نظرت إلى سيدة أخرى متوسطة العمر إنجليزية السمات بقربها، فقالت تخاطبها: أسمعت هذا يا آنسة هيذرنجتون؟ تماماً كما كنت أقول لك بالأمس. يجب أن تصممي على الجلوس في مؤخرة الطائرة مهما حاولت المضيفة أن تغريك بالجلوس في المقدمة.

ردت هيلاري ببساطة: ولكن لا بد للبعض أن يجلس في المقدمة.

- على أية حال لن أكون أنا هذا «البعض». ثم أردفت: اسمي السيدة بيكر، كالفن بيكر. أنا أمريكية الجنسية وقد وصلت لتوي من موكادور، أما الآنسة هيذرنجتون فجاءت من طنجة، وقد تم التعارف بيننا هنا. ترى هل تنوين السفر إلى مراكش يا سيدة بيترتون؟

ردت هيلاري: هذا فعلاً ما كنت أنوي، ولكن الحادث أفسد الترتيبات.

- طبعاً، طبعاً، لكن يجب ألا تفوتك زيارة مراكش. ألا تقريني على هذا يا آنسة هيذرنجتون؟

ردت الآنسة هيذرنجتون: ولكن مراكش باهظة التكاليف وقيود تحويل النقد تزيد الأمر صعوبة ومشقة.

فأكملت السيدة بيكر: إن فندق المأمون من الفنادق الفاخرة، فيمكنك أن تنزلي فيه.

فانبرت الآنسة هيذرنجتون تقول معترضة: لكن أسعاره لا تحتمل ولا يمكن أن يخطر لي أن أنزل فيه، أما أنت يا سيدة بيكر فالأمر يختلف بالنسبة إليك إذ لا قيود عليكم معشر الأمريكيين في تحويل ما تشاؤون من الدولارات.

تابعت السيدة بيكر متسائلة: وهل تنوين زيارة بلاد أخرى يا سيدة بيترتون؟

- في نيتي زيارة فزان، ولكن لا بد طبعاً أن أجدد الحجز في الفندق.

- طبعاً، فزيارة فزان أو الرباط ينبغي أن لا تفوتك.

- وهل سبق لك زيارتهما؟

- ليس بعد، ولكني ذاهبة إليهما قريباً، وكذلك الآنسة هيذرنجتون.

قالت الآنسة هيذرنجتون: أعتقد أن الحي القديم لا يزال على حاله ولم تفسده المدنية.

استمر الحديث على هذا النحو برهة من الوقت، ثم استأذنت هيلاري في الانصراف متذرعة بالتعب، إذ كان هذا هو أول يوم غادرت فيه المستشفى، فصعدت إلى غرفتها.

ترى هل كانت هذه الأسئلة التي وجهتها إليها السيدة بيكر مجرد حديث عابر أم استجواباً مقصوداً له هدف مبيت؟ ومهما يكن فقد قررت هيلاري أن تمضي في اليوم الثاني إلى شركة كوك وتجدد الحجز في فزان والرباط، وذلك ما لم يتصل بها أحد العملاء ليلقي إليها بتعليمات أخرى.

في اليوم التالي لم تتلقَ أي خطاب أو رسالة تليفونية، وما أن شارفت الساعة على الحادية عشرة حتى كانت في مكتب السياحة متخذة مكانها في الطابور الطويل المصطف أمام الشباك، وأخيراً حان دورها وبدأت تحدث كاتب الحجز عما تريد، ولكن رئيسه بادر إليها من وراء مكتبه قائلاً: دعيني أولاً

أهنئك على نجاتك يا سيدة بيترتون. أما عن الحجز فقد نفذت فعلاً تعليماتك التليفونية، وها هي التذاكر جاهزة.

وتسارعت نبضات قلبها، فهي لم تتصل بشركة كوك ولم تعهد إلى أحد بالاتصال بها! إذن فالترتيبات الخاصة بسفر أوليف بيترتون إنما تنظم بمعرفة آخر مجهول. وقالت: لقد أتيت بنفسي لأنني خشيت أن يكونوا قد أغفلوا الاتصال بكم.

وفي صباح اليوم التالي كانت السيدة هيلاري كرافن في طريقها إلى فزان.

* * *

الفصل السادس

خيبت كازابلانكا أحلام هيلاري كرافن، فقد بدت أشبه ببلدة فرنسية الطابع ليس فيها شيء من نسمات الشرق السحرية التي كانت تهفو إليها. أخذت تنظر من نافذة القطار إلى الأراضي المنبسطة وهو منطلق عبر السهول ناحية الشمال، لم يكن في المقصورة عداها إلا أربعة أشخاص، فرنسي يجلس قبالتها وله طابع الوسطاء المتجولين، وراهبة منزوية في أحد الأركان وأصابعها تجري على مسبحتها، وامرأتان مراكشيتان تتسامران في مرح وغبطة. وحين تناولت هيلاري سيجارة من علبتها سارع الفرنسي يشعلها لها، وكان ذلك بداية وصلت الحديث بينهما.

قال لها الفرنسي فيما قال: ينبغي يا سيدتي أن تزوري الرباط. إنها رائعة ومن الخطأ أن تفوتك مشاهدتها.

قالت: سأحاول، وإن لم يكن في الوقت متسع. ثم أردفت وقد لاحت على شفتيها ابتسامة خفيفة: وفضلاً عن هذا فإن نقودي وشيكة على النفاد. أنت تعلم أنهم لا يسمحون لنا بأن نأخذ معنا إلى الخارج إلا القليل.

قال: ولكن هذا أمر سهل يا سيدتي، يمكنك تدبيره مع أي صديق لك هنا.

- أخشى أنني لا أعرف أحداً في مراكش.

قال في سماحة: في رحلتك التالية حسبك أن تبعثي إليّ بكلمة صغيرة فأدبر لك الأمر، وهاك بطاقتي. إنني أسافر إلى إنجلترا كثيراً، فيمكنك أن تردي إلي هناك ما أعطيه لك.

- شكراً لك يا سيدي، فأنا أفكر فعلاً في أن أزور مراكش مرة أخرى.

- لا شك أنكِ وجدت مراكش مختلفة تماماً عن إنجلترا، فجو إنجلترا كريه شديد البرودة مغلف بالضباب. ثم استطرد: لقد تركت باريس منذ ثلاثة أسابيع وكانت هي الأخرى غارقة في الضباب والأمطار، أما هنا فالشمس دائماً مشرقة رائعة، وإن كان الجو بارداً إلى حد ما. كيف كانت حالة الجو عندما غادرت إنجلترا؟

ردت هيلاري: ضباب خانق.

- تماماً، تماماً، فهذا هو موسم الضباب. وكيف كانت حالة الثلج؟ ألم يسقط عندكم هذا العام؟

فتساءلت هيلاري في نفسها عما إذا كان هذا الفرنسي يتبع الأسلوب الإنجليزي التقليدي فيبدأ حديثه عن الجو. ألم يهدف إلى شيء آخر حينما أشار إلى «الثلج»، وهي نفس الكلمة التي رددتها أوليف بيترتون قبيل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة؟ هل كلمة

الثلج (وقد رددها مرتين) كلمة عارضة أم رمز خفي؟

توقف بهم القطار أخيراً في فزان وقد هبط الليل، وبادر الفرنسي يحمل عنها حقيبتها وسألها: أذاهبة أنتِ يا سيدتي إلى فندق قصر الجمال؟

ردت بالإيجاب، فاستطرد: إنه يبعد عن المدينة ثمانية كيلومترات.

فقالت في دهشة: ثمانية كيلومترات؟ إذن فهو في ضواحي المدينة؟

- نعم، في الحي القديم. أما أنا فسأنزل في أحد فنادق المدينة التجارية الجديدة، ولكن على من ينشد الراحة والهدوء والاستجمام أن يهرع إلى قصر الجمال، فقد كان هذا القصر مقاماً لإحدى الأسر المراكشية النبيلة ثم تحول إلى فندق بحدائقه الواسعة الرائعة، كما أنه مجاور للحي القديم ذي الطابع الشرقي الخلاب. ثم أردف: يبدو أن الفندق لم يوفد أحداً لاستقبالك، فاسمحي لي أن أستدعي لك سيارة أجرة؟

- شكراً لك يا سيدي.

تحدث الفرنسي بالعربية مع أحد الحمالين، وشيعها حتى استقرت في السيارة ثم قال لها: إن بطاقتي معك يا سيدتي، فإذا احتجت شيئاً فلا ترددي في الاتصال بي. أنا نازل في فندق جراند أوتيل ولن أسافر إلا بعد أربعة أيام.

ورفع قبعته يحييها، وانطلقت بها السيارة. وتناولت

هيلاري بطاقة الفرنسي لتقرأ اسمه: «هنري لورييه». خرج بها التاكسي إلى ضواحي المدينة يشق الطرقات الريفية، وحاولت هيلاري النظر من النافذة ولكن الظلام كان سائداً يحول دونها وأن تتبين معالم الطريق فيما عدا بعض أبنية متناثرة كان الضوء يشع منها، وتزاحمت الخواطر في ذهنها وتدفقت وأخذت تسائل نفسها: ترى أمن هنا تبدأ رحلتها إلى المصير المجهول؟ وهل السيد هنري لورييه عميل سري من عملاء المنظمة؟ وهل يكون هو الذي أغرى توماس بيترتون بأن يتخلى عن عمله ويهجر زوجته ويرحل عن وطنه؟ ثم إلى أين تمضي بها هذه السيارة؟

ولكن السيارة ما لبثت أن توقفت بها أمام فندق قصر الجمال فانتزعتها من دوامة خواطرها المتضاربة الصاخبة. نزلت من السيارة ودخلت إلى الفندق تشق طريقها وسط جو شرقي أصيل، فالثريات من النحاس والأرائك والوسائد بدلاً من المقاعد متناثرة بألوانها الزاهية البراقة والموائد في جميع الأركان وفوقها صواني القهوة، أما غرفتها فكانت مزودة بكل وسائل الراحة العصرية.

أبدلت هيلاري ثيابها ونزلت إلى قاعة الطعام لتناول العشاء. كان الطعام شهياً طيب المذاق، ودارت ببصرها في أنحاء القاعة تستجلي وجوه الحاضرين وتنظر إلى الداخلين والخارجين. استرعى نظرها كهل ذو لحية صغيرة مدببة، إذ كان الجرسونات جميعاً يهرعون إليه مهرولين لأقل إيماءة يبديها من رأسه أو إصبعه أو حتى من حاجبيه. وأخذت تسأل نفسها عمن يكون هذا الرجل ذو الشخصية المرموقة.

وإلى مائدة أخرى وسط القاعة كان يجلس رجل ألماني كما كان هناك كهل تجالسه فتاة على غاية من الجمال تراءى لهيلاري أنها لا بد أن تكون سويدية أو هولندية. كما كانت هناك أسرة إنجليزية معها طفلان، وكذلك تناثرت حول الطاولات الأخرى جماعة من الأمريكيين وثلاث من الأسر الفرنسية. وما أن فرغت هيلاري من العشاء حتى خرجت إلى الشرفة لتناول القهوة، وكان الجو بارداً فسرعان ما لاذت بغرفتها.

في الصباح عادت إلى الشرفة والشمس تغمر الأرض بالضوء وأشعتها التي تبث الدفء، فاتخذت مكانها تحت مظلة تقيها الحرارة المتوهجة. وجاءت السويدية الشقراء فجلست إلى إحدى الطاولات وأخذت تتثاءب في ضجر وملل وقد زوت ما بين حاجبيها، ثم أقبل رفيقها الكهل. وتساءلت هيلاري عما إذا كان زوجها أو أباها، وحيته الفتاة في وجوم دون أن تبتسم ثم مالت إليه تحدثه في عصبية، وانكمش الرجل وبدا كمن يعتذر إليها. ثم أقبل الرجل ذو اللحية المدببة واتخذ لنفسه مائدة في أقصى الشرفة، وهرول إليه الجرسون يكاد يركض فتلقى أوامره ثم انصرف مسرعاً. ولمست السويدية الحسناء ذراع رفيقها واتجهت ببصرها ناحية الكهل الملتحي وغمغمت ببعض الكلمات. طلبت هيلاري كأساً من العصير وهمست تسأل الجرسون: من يكون هذا الرجل الجالس في أقصى الشرفة؟

أجاب الجرسون في زهو وخيلاء: إنه السيد أريستيد، وهو ثري جداً من كبار المليونيرات.

تطلعت هيلاري إلى الرجل. هذا العجوز المنكمش على نفسه، هذا المخلوق المغضن الوجه الذي يبدو أشبه بالمجرمين. هكذا إذن، لأن خزائنه عامرة بالمال يولونه كل هذا الاهتمام! ورفع الرجل رأسه فتلاقت نظراته بنظرات هيلاري برهة ثم ما لبث أن أشاح عنها. ونهضت السويدية الحسناء ورفيقها ودخلا إلى المائدة، ثم رجع الجرسون يحمل العصير وقال لها وهو أمامها على الطاولة: هذا الشخص الذي مضى الآن إلى قاعة الطعام... إنه قطب من أقطاب الصناعة في العالم، والسيدة التي معه نجمة من نجوم السينما، ويقولون عنها إنها غريتا غاربو أخرى. إنها أنيقة جداً وجميلة جداً ولكنها تتشاحن معه دائماً، لا شيء يعجبها هنا، فقد كرهت فزان وتريد منه أن يذهب بها غداً إلى مكان آخر يبعث على التسلية. ثم أردف: حتى الأثرياء لا ينعمون بالراحة وهدوء البال.

وعند هذه الكلمات استدار الجرسون وأسرع منصرفاً ليلبي إشارة لأحد النزلاء. وجاء إلى الشرفة من البار شاب فرنسي وسيم فرمى هيلاري بنظرة طويلة ذات مغزى خفي كأنما يقول لها: ما الذي يدعوك إلى البقاء هنا؟ لِمَ لا تتمشين قليلاً في الحديقة؟ ثم هبط الدرج إلى الحديقة وهو يتمتم بمقطوعة من إحدى الأوبرات الفرنسية منشداً: "وكانت زهور اللورييه صفوفاً طويلة منتشية تحلم أحلاماً جميلة"، فأيقظت كلماته في نفس هيلاري ذكرى بعيدة. ذلك الفرنسي الذي التقت به في القطار وقدم إليها بطاقته. أما كان يدعى لورييه؟ وها هو هذا الفرنسي يردد نفس الكلمة: "زهرة اللورييه"، فهل ثمة ارتباط بين الأمرين أم هو مجرد مصادفة؟

وفتحت حقيبتها وتناولت البطاقة. نعم اسمه هنري لورييه وعنوانه رقم ٣ شارع كرواسانت، كازابلانكا. راحت تقلب البطاقة بين يديها وهي ساهمة شاردة، ثم فطنت إلى آثار كتابة متخلفة على ظهر البطاقة بعد أن محيت الكلمات. رفعت البطاقة إلى عينيها في ضوء الشمس محاولة أن تتبين آثاراً أخرى مطموسة غير واضحة، وأخيراً تبينت كلمة «دانتان». مضت تتساءل عما إذا كانت هذه الكلمات تنطوي على معنى خفي، ثم هزت كتفيها يائسة ونفضت الفكرة من رأسها ودست البطاقة في حقيبتها.

وسقط ظل على وجهها فرفعت رأسها جفلة. كان السيد أريستيد منتصباً عن كثب منها بينها وبين الشمس فوقع ظله على وجهها، بيد أنه لم يكن ينظر إليها وإنما كان ينظر إلى التلال البعيدة عبر الحديقة، وسمعته يتنهد ثم يستدير فجأةً متجهاً إلى قاعة الطعام، فإذا بذراعه تصطدم بكأس العصير الموضوع على مائدتها فأطاح به إلى الأرض وتهشم.

تحول إليها المليونير اليوناني قائلاً بالفرنسية: آه! ألف معذرة يا سيدتي.

فتبسمت هيلاري في وجهه وأكدت له أن الأمر ليس بذي أهمية، وتلبية لفرقعة خفيفة من إصبعيه جاء الجرسون مهرولاً فأمره بأن يجلب للسيدة كأساً آخر، ثم كرر اعتذاره ومضى إلى قاعة الطعام.

عاد الشاب الفرنسي من الحديقة، وهو لا يزال يترنم مغنياً، وحين مر بجانب هيلاري تريث في مشيته عامداً. وإذ

رآها لا تشجعه ولا تلقي إليه بالاً هز كتفيه وتابع طريقه. وحمل إليها الجرسون شرابها فسألته هيلاري: هل ينزل السيد أريستيد في الفندق وحده أم معه حاشيته؟

- إن الأثرياء من أمثاله لا يسافرون وحدهم أبداً. معه وصيفة وسائق سيارته واثنان من السكرتارية.

وحين ذهبت هيلاري إلى قاعة الطعام رأت اليوناني منفرداً إلى إحدى الموائد كما كان شأنه في الليلة السابقة، وإلى مائدة قريبة كان يجلس شابان ترجح لديها أنهما السكرتيران، إذ كانا لا يفتآن ينظران إلى المائدة التي يجلس إليها السيد أريستيد.

وانقضت الظهيرة في سلام وهدوء، وطاب لهيلاري أن تمضي معظم الوقت في الحديقة غارقة في أحلامها وخواطرها ناعمة بالجو الشذي والنسمات العطرة التي تنساب من حولها. وأشرفت الشمس على المغيب وهبت نسمات باردة ارتعدت لها هيلاري، فتركت الحديقة إلى قاعة الجلوس، فإذا بها تلتقي وجهاً لوجه بالسيدة كالفين بيكر. قالت لها الأمريكية: لقد وصلت لتوي بالطائرة من كازابلانكا، فأنا لا أطيق القطارات باهتزازاتها وتأرجحها فوق القضبان. ولم تدع لهيلاري فرصة للحديث بل استطردت على الفور تقول: وكيف حالك الآن؟ لا بد أنك زرت المدينة القديمة اليوم؟

أجابت: الحق أنني أمضيت نهاري أستمتع بالشمس.

- آه، لقد نسيت أنك خارجة لتوك من المستشفى، فلا بد بعد الارتجاج من الراحة والانسجام وأن ترقدي في غرفة

معتمة معظم ساعات النهار، ورويداً يمكن أن تعتادي على المشي والتجول، وعندئذٍ سأدعوك إلى أن تصحبيني في بعض الرحلات لأنني أحب جعل أيامي حافلة زاخرة بالنشاط رغم ما بلغت من العمر.

فهنأتها هيلاري على وفرة حيويتها ونشاطها، واستطردت السيدة بيكر: أتذكرين السيدة التي عرّفتك بها في كازابلانكا؟ الآنسة هيذرنجتون؟ إنها قادمة اليوم بالقطار إذ تؤثره على الطائرة. واستمرت تقول مندفعة كالسيل الجارف: لقد حجزوا لي غرفة لا تروقني ولكنهم وعدوا بتغييرها، وسأذهب إليهم الآن لأرى ما اتخذوا في هذا الشأن.

وانصرفت على الفور تمشي في نشاط لا يتفق وسنها، وعندما نزلت إلى قاعة الطعام مساء ذلك اليوم كانت الآنسة هيذرنجتون هي أول شخص وقع عليه بصرها.

وبعد العشاء شربت السيدات الثلاث القهوة معاً وتبادلن ملاحظات عابرة عن نزلاء الفندق الذين كانوا متناثرين حول الطاولات يتناولون العشاء.

* * *

الفصل السابع

مضت هيلاري إلى مكتب الاستعلامات بالفندق تخطرهم بعزمها على زيارة الحي الشرقي فزودوها بدليل يصحبها إليه، ومضى الدليل تصحبه هيلاري يجتازان حديقة الفندق الشاسعة الأرجاء، حتى إذا انتهيا إلى طرفها القصي أخرج الدليل من جيبه مفتاحاً كبير الحجم وفتح به باباً تكاد تحجبه الأشجار عن النظر ودلف منه تتبعه هيلاري. وتسمرت هيلاري مكانها في عجب ودهشة، فقد ألفت نفسها في دنيا غير تلك الدنيا التي كانت تعيش فيها منذ لحظات. إذن فهذا هو الحي الشرقي الشهير! شوارع ضيقة ملتوية لا تكاد تتسع لاثنين يسيران جنباً لجنب، وبيوت منخفضة متلاصقة لو أن الأذرع ارتفعت لطاولت سقوفها، وأناس يروحون ويغدون في عباءاتهم الواسعة الفضفاضة. أما الحوانيت فتكدست فيها السلع والتحف الشرقية الجميلة المصنوعة من الجلد المزركش أو النحاس المشغول. وفتنها المشهد وسحرها، لكن أزعجها هذا الدليل الذي كان لا ينفك يثرثر في أذنها من لحظة لأخرى: انظري لهذا يا سيدتي، تأملي ذلك، هل يعجبك هذا؟ كأن ليس لها عينان ترى بهما. وأخيراً قال لها الدليل بعد أن امتدت

بهما الجولة وطالت: والآن سأذهب بك يا سيدتي إلى مشرب للشاي حيث تتناولين الشاي المغربي الشهير بمذاقه اللذيذ.

ومضى بها إلى مشرب يقع على سفح أحد التلال، فألفت نفسها داخل مبنى شرقي الطراز تناثرت فيه على أرض القاعة وسائد من الجلد المزركش وأرائك مكسوة بقماش منقوش زاهي اللون، وقدّم إليها الشاي المخلوط بالنعنع في كوب زجاجي صغير الحجم، وكان عليها أن تشرب مثنى وثلاث ورباع. وقال لها الدليل: والآن سآخذك في السيارة إلى الضاحية لتري مشهد الطبيعة في بلادنا، وهو مشهد ساحر خلاب. ثم أردف: ولكن هذه الجرسونة ستذهب بك أولاً إلى الحمام، إذ لا شك أنك تريدين أن تغسلي وجهك ويديك. وتدخلت الجرسونة في الحديث قائلة بابتسامة لطيفة: لدينا في فزان حمامات رائعة لا تقل جمالاً عما رأيت في لندن أو باريس أو شيكاغو.

نهضت هيلاري عن الوسادة التي كانت متربعة فوقها ومضت في أعقاب الجرسونة. كان الحمام فعلاً في غاية من الأناقة والنظافة، وكان مزوداً بالماء الساخن والبارد. وفرغت هيلاري من تجميل نفسها وهمت بالخروج، ولكنها حين أدارت مقبض الباب استعصى وأبى أن ينفتح. عقدت هيلاري ما بين حاجبيها دهشة وغضباً، إذ ما معنى أن تحبس في الحمام؟ ومن يكون ذلك الذي أوصد عليها الباب من الخارج؟ وهمت بأن تقرع الباب لولا أن فطنت إلى باب آخر يقوم في الجدار المقابل، فسارت إليه وأدارت مقبضه فانفتح على الفور، ووجدت نفسها في غرفة صغيرة شرقية الطراز

معتمة الضوء. وحين ألِفت عيناها الرؤية وأدارت بصرها في أنحاء المكان إذا بها تراه جالساً هناك على أريكة يدخن سيجارته في هدوء... ذلك الفرنسي الذي التقت به في القطار، السيد هنري لورييه.

* * *

لم ينهض الفرنسي ليحييها وإنما لزم مكانه واكتفى بأن يقول لها: طاب يومك يا سيدة بيترتون.

لبثت مكانها برهة جامدة بلا حراك وطغت عليها دهشة لجمت لسانها وشلت تفكيرها، ثم بدأت تستعيد رباطة جأشها. إذن فقد بدأت الرحلة الحقيقية! إذن فهذه هي المغامرة الحقيقية التي كانت تترقبها. عليها أن تتصرف طبقاً لما كان مفروضاً أن يصدر عنها، عن السيدة بيترتون الحقيقية. عليها أن تحسن أداء دورها وإلا أودت بنفسها إلى التهلكة. قالت وقد تمالكت نفسها وسيطرت على أعصابها: ألديك أنباء لي؟ أيمكنك أن تساعدني؟

أومأ إيجاباً ثم أردف بنبرة لوم وعتب: ما بالك كنت في القطار متحفظة حذرة مع أنني ظللت طول الوقت أحدثك عن الجو؟

الجو؟ ترى ما الذي قاله السيد لورييه عن الجو؟ نعم، لقد تكلم عن البرد وعن الضباب وعن الثلج. آه، عن الثلج... الثلج! نفس الشيء الذي تحدثت عنه أوليف بيترتون وهي تحتضر وتلفظ نفسها الأخير. وذكرت على الفور أغنية الطفولة

التي رددتها عندئذٍ وبادرت على الفور تكرر نفس المقطوعة: "الثلج، الثلج، الثلج الجميل... تدوسين على قطعة منه وتنزلقين... ثم تذهبين، تذهبين".

قال لوريبه: تماماً، إنها كلمة السر المتفق عليها، فلماذا لم تستجيبي إذ ذاك وترددينها على الفور كما أُمرت؟

قالت هيلاري: أغاب عنك أنني كنت مريضة؟ لقد كنت في الطائرة التي سقطت وأصبت في ارتجاج في المخ أثّر على ذاكرتي إلى حد ما. لا زلت أذكر الماضي بدقائقه وتفاصيله، ولكني في بعض الأحيان أشعر بفراغ وينمحي من ذهني كل شيء.

قال لوريبه مؤمّناً: أستطيع أن أدرك هذا، ولكن المشكلة هي، هل أنت في حالة يمكنك معها أن تواصلي الرحلة؟

فردت في حماس: طبعاً سأواصل الرحلة، إن زوجي...

فقاطعها: إن زوجك بانتظارك في لهفة وشوق على ما فهمت. وتبسم في وجهها، بيد أن ابتسامته كانت متسمة في ثناياها بقسوة واضحة، وسألها: أتعتقدين أن السلطات الإنجليزية اقتنعت بإجاباتك عندما استجوبتك؟

- وأنى لي أن أعرف؟ ولكن يبدو أنهم كانوا راضين. ثم أردفت: ولكن أعتقد أنهم وضعوني تحت المراقبة منذ غادرت البلاد. أنا لم أفطن طبعاً إلى أن هناك من يتعقبني، لكن لديّ إحساساً داخلياً بهذا.

قال لوريبه ببرود: هذا شيء طبيعي توقعناه وأدخلناه في حسابنا. نحن لسنا بالأطفال البلهاء يا سيدة بيترتون! لقد كنت تحت المراقبة منذ اللحظة التي اختفى فيها زوجك، ومع ذلك استطعنا أن نبلغك رسالتنا، أليس كذلك؟

قالت موافقة: طبعاً، طبعاً.

- والآن سأزودك بتعليماتنا الجديدة. بعد غد تسافرين إلى مراكش طبقاً لجدول الحجز السابق، وفي مراكش ستتلقين برقية من إنجلترا تحملك على أن تتخذي على الفور الإجراءات اللازمة للعودة.

قالت باستغراب: هل سأعود إلى إنجلترا؟

فرد بجفوة: أنصتي إليّ ولا تقاطعيني. ستحجزين لك مكاناً في الطائرة التي ستغادر كازابلانكا في اليوم التالي.

- هب أن المقاعد كلها كانت مشغولة؟

- لن تكون كلها مشغولة، ستجدين مقعداً شاغراً في انتظارك فقد اتخذنا العدة لكل شيء. ثم أردف: والآن، هل وعيت التعليمات تماماً؟

- وعيتها تماماً.

- إذن عودي إلى الدليل فقد طال انتظاره. وبهذه المناسبة فقد تعرفتِ إلى سيدتين في قصر الجمال، إحداهما أمريكية والأخرى إنجليزية، أليس كذلك؟

فردت في نبرة من الوجل: نعم، فهل أخطأت بهذا؟ فقد فرضت الأمريكية نفسها عليّ ثم عرفتني بزميلتها، أنا آسفة.

- هوني عليك، فهذا التعارف يلائم خطتي. ثم أردف: يحسن بك أن تحاولي إقناع إحداهما بمرافقتك في رحلتك لمراكش.

- سأحاول يا سيدي، وإن كنت لا أدري إن كانت ستقبل أم لا.

- إذن إلى اللقاء، طاب يومك.

رجعت هيلاري إلى الحمام، ومن الغريب أن الباب المفضي إلى المشرب استجاب لها حين أدارت مقبضه.

* * *

قالت الآنسة هيذرنجتون تخاطب هيلاري كرافن: إذن فأنت مسافرة غداً إلى مراكش؟ ولكنك لم تقيمي في فزان سوى فترة وجيزة.

- لقد استمتعت منها بما يكفي. ولعلي أستطيع أن أغري أيكما بمصاحبتي في رحلتي لمراكش، فقد سعدت بالتعرف بكما وسفر المرء وحيداً يبعث على الضجر.

ردت الآنسة هيذرنجتون: أرجو أن تعفيني من هذه الرحلة، فقد زرت مراكش من قبل.

أما السيدة بيكر فقالت: لقد كنت في مراكش منذ شهر،

ولكن لمَ لا أزورها مرة أخرى؟ إنني ولوعة بالرحلات، والمرء حين يزور بلداً للمرة الثانية فإنه يستشف منها ما لم يفطن إليه في أول مرة. أنا ذاهبة من فوري لأحجز تذكرة للسفر.

* * *

خلت هيلاري كرافن بنفسها وانهالت على ذهنها الخواطر صاخبة متضاربة كأنها دوامة في لجة من الماء. انتزعت نفسها من خواطرها حين سمعت بغتة بجانبها صوتاً يقول: أتسمحين لي يا سيدتي أن أجالسك برهة؟

كان المتحدث هو ذلك المليونير اليوناني ذو اللحية المدببة، السيد أريستيد. وسحب مقعداً وجلس بجانبها وقدم إليها سيجارة وأشعل لنفسه أخرى. قال: ترى هل أعجبتك هذه المدينة يا سيدتي؟

- لا أدري، لأنني لم أقضِ فيها إلا برهةً وجيزة.

- هل زرت الحي الشرقي؟

- إنه رائع خلاب.

- صدقت، إنه رائع حقاً. إنه موطن الماضي، الماضي بدسائسه وهمساته الخافتة وغموضه السحري وعواطفه الجياشة الفاترة! ثم أردف: أتعرفين يا سيدتي ما يطوف بذهني حين أتجول خلال شوارع فزان الضيقة المتعرجة؟ إنني عندئذٍ أذكر شوارع لندن المتسعة المكشوفة. هناك كل شيء واضح صريح، أما هنا فالغموض هو السائد والستائر تخفي كل ما

يجري وراءها. ثم تابع: أتعلمين يا سيدتي؟ إنني أحسدك على التجربة التي مررت بها بحادث سقوط الطائرة، فقد تمنيت لو أنني كنت مكانك! إنها لمغامرة رائعة أن يرى المرء الموت ثم إذا به يرتد إلى الحياة! ذلك الشيء ينقي الروح ويطهرها.

وكما جاء فجأة انصرف فجأة، وهيلاري تتابعه بنظرة تفيض بالدهشة والاستغراب.

* * *

الفصل الثامن

في قاعة الانتظار بالمطار كانت هيلاري كرافن تترقب قيام الطائرة وإلى جانبها السيدة بيكر تصب في أذنيها ثرثرتها التي لا تنتهي وتجيب في شرود على الأسئلة التي توجه إليها. لكن سيل الحديث المتدفق ما لبث أن اتخذ مجرى آخر، فقد التفتت السيدة بيكر إلى شابين كانا يجلسان عن كثب، أحدهما أمريكي يتألق وجهه دائماً بابتسامة عريضة مشرقة والآخر فيما يبدو هولندي أو نرويجي السحنة وأكثر جداً ووقاراً من صاحبه.

قالت السيدة بيكر تخاطب الأمريكي: أحب أن أعرفك بصديقتي، السيدة بيترتون يا سيد، يا سيد...

- أندرو بيترز، وأصدقائي ينادونني باسم آندي.

فنهض الآخر ووقف وانحنى باحترام وقدم نفسه بقوله: توركيل إيريكسون.

قالت السيدة بيكر: والآن وقد تعارفنا، هل نحن جميعاً ذاهبون إلى مراكش؟ هذه هي أول زيارة لصديقتي لهذه المدينة.

قال النرويجي إيريكسون: وهي أول زيارة لي أيضاً. وقال بيترز: وهذا ينطبق عليّ.

وعلا صوت الميكروفون بكلمات متداخلة غير واضحة فهموا منها أن موعد قيام الطائرة قد حان. وبخلاف هؤلاء الأربعة ضمت الطائرة شخصين آخرين، رجلاً فرنسياً وراهبة صارمة القسمات جامدة الوجه. أسندت هيلاري رأسها إلى ظهر المقعد فأطبقت عينيها وران عليها النعاس، وما لبثت أن استغرقت في النوم. ثم صحت فجأة من النوم ولاحظت أن الطائرة تنحدر إلى الأرض مخفضة من سرعتها، ومالت إلى النافذة تطل من ورائها بيد أنها لم ترَ أثراً لأي مطار. وتثاءب الفرنسي وقال: يبدو أننا سنهبط، ولكن لماذا؟

فردت هيلاري: فعلاً، فقد أخذت الطائرة بالهبوط.

ودارت الطائرة حول نفسها عدة دورات، وتوقفت محركاتها وسكن الهدير. ترى هل أصابها خلل ما أم أن الوقود نفد منها؟ ارتطمت العجلات بالأرض وجرت فوقها وهي تهتز وتتأرجح فوق المطبات غير المستوية، ثم جاء الطيار من مقصورته يقول لهم: أرجوكم أن تتفضلوا بالنزول. وغادروا الطائرة تباعاً واحداً تلو الآخر. لم يكن مطاراً ذلك الذي هبطوا فيه وإنما كان بقعة منعزلة في قلب الصحراء الممتدة بلا حدود.

قالت هيلاري متسائلة في صوت تغشاه الحيرة: ولكن ما الذي جرى؟ لماذا نزلنا؟

قال الطيار مجيباً: على كل حال لن نبقى إلا دقائق قليلة.

ورمى بصره عبر الأفق ناحية الجبال المكسوة بالثلوج، ثم قال: لقد تأخرت قليلاً، ولكن ها هي قادمة على البعد.

قال المسافر الفرنسي: لقد فهمت أنه ستكون في انتظارنا سيارة ميكروباص لكي نكمل الرحلة فيها.

عادت هيلاري تتساءل: هل أصاب المحرك عطب؟

ابتسم بيترز ابتسامته العريضة المألوفة التي تشيع في كل ثنايا وجهه وقال: كلا، إن المحرك سليم ولكن كان لا بد أن يدبروا شيئاً من هذا القبيل.

وأخيراً جاءت السيارة الميكروباص يقودها سائق من البربر في سرعة خاطفة اضطر معها أن يضغط فراملها بكل قوة حتى توقفت بجوارهم في المكان المناسب. ولدهشة هيلاري سمعت السيدة بيكر تصدر أمراً بقولها: هيا أسرعوا فلا نريد أن نتأخر أكثر من هذا.

ومضى السائق إلى الجزء الخلفي من السيارة وفتح الباب فانكشف عن صندوق ضخم يشغل المؤخرة، فتعاون بيترز وإيريكسون مع السائق والطيار على إنزاله إلى الأرض في جهد ومشقة إذ بدا ثقيلاً مرهقاً، ثم أقبل الفرنسي على الصندوق يفتحه ويرفع غطاءه فاقتربت هيلاري محاولة النظر لما بداخله. وعندئذ أخذت السيدة بيكر بذراعها تنحيها جانباً وهي تقول: لو أنني مكانك لما حاولت النظر إلى ما في الصندوق.

قالت هيلاري بعجب مستغربة: ولمَ لا؟ وما الذي في الصندوق؟

تألقت ابتسامة بيترز العريضة وقال: أنا أعرف ما فيه. إن فيه مجموعة من الجثث!

رددت هيلاري في ذهول: جثث؟!

- نعم، جثث. جثث اشتُريت بطريقة قانونية سليمة لإجراء بحوث طبية عليها، والذي اشتراها هو الدكتور بارون (وأشار إلى الرجل الفرنسي)، ثم استطرد: هنا تنتهي رحلتنا يا سيدة بيترتون. أعني المرحلة الأولى من الرحلة. ستوضع الجثث في الطائرة ثم تشتعل فيها النيران، وسوف نراها على البعد ونحن نستقل الميكروباص شعلة متأججة.

غمغمت هيلاري: ولكن لماذا؟ لماذا؟

وكان الدكتور بارون هو الذي أجاب، فقال: ولكن تعرفين طبعاً إلى أي مكان سوف نذهب، نحن ذاهبون إلى المصير المجهول.

* * *

الفصل التاسع

- والآن أرجو أن تستقلوا الميكروباص وأن تسرعوا، فقد تأخرنا عن الموعد المحدد.

صعدوا إلى الميكروباص، والتفتت هيلاري إلى السيدة الأمريكية وقد بدأت تدرك حقيقة الوضع وسألتها: إذن فأنت ما يسمونه بضابطة الاتصال؟

فأجابتها السيدة بيكر: تماماً، أنا ضابطة الاتصال التي تتولى العلاقات العامة، فليس مما يثير الشك رؤية سيدة أمريكية تنتقل بين مختلف البلاد وتتحدث إلى هذا وذاك، فتلك طبيعة الأمريكيين. واستطردت السيدة بيكر: سوف يكون خبراً مثيراً حين يقرأ الناس في الصحف أن الطائرة سقطت بالسيدة بيترتون للمرة الثانية، وإن كانت قد احترقت هذه المرة مع سائر الركاب ولم يُعثر في الحطام إلا على جثث شوهتها النيران واختفت معالمها المميزة.

وأطلقت السيدة بيكر ضحكة مرحة، فأدركت هيلاري مدى دهاء الخطة المدبرة وبراعتها، فقالت: وهؤلاء الآخرون؟ ما شأنهم؟

ردت السيدة بيكر: الدكتور بارون من أشهر علماء الجراثيم، والسيد إيريكسون من أفذاذ علماء الطبيعة، أما السيد بيترز فباحث كيميائي شهير، والآنسة فيدهايم ليست راهبة طبعاً وإنما هي أخصائية في الغدد، أما أنا فلا أنتمي إلى البيئة العلمية وإنما أنا مجرد ضابطة اتصال.

وتساءلت هيلاري: والآنسة هيذرنجتون؟ ما شأنها؟

- شأنها فيما أعتقد هو مراقبتك وتتبع خطواتك منذ حللت بكازابلانكا، وكذلك التأكد من أن أحداً لا يقتفي أثرك، وإن كنت في حقيقة الأمر لا أعرف شيئاً عنها فربما كانت غير منتمية إلينا. ثم هتفت السيدة بيكر: آه، انظري! ها هي تشتعل.

ومالت هيلاري إلى النافذة تنظر منها فرأت على البعد شعلة تتأجج من النيران وسمعت دوي انفجار خافت. ورمى بيترز برأسه إلى الوراء وقال وهو يضحك: غداً تنشر الصحف بالخط العريض: «ستة أشخاص يلقون حتفهم عندما هوت بهم الطائرة وهم في طريقهم إلى مراكش»! ولن يخطر لهم ببال أبداً أن هؤلاء الأشخاص الستة كانوا من قبل جثثاً هامدة شبعت موتاً.

همست هيلاري: هذا مخيف، مخيف جداً!

- أتعنين الانطلاق إلى المصير المجهول؟ كان بيترز هو الذي تكلم، وكان الآن يبدو جاداً. تبددت من سماته أمارات المرح التي كانت تغشاه واستطرد: هذا صحيح، ولكنه الطريق الوحيد. إننا الآن نطرح الماضي وراءنا ونخطو إلى المستقبل.

وأضاء وجهه بإشراقة من الحماس والانفعال: الآن نهجر خلفنا الأشرار والمجانين، الحكومات الفاسدة وتجار الحروب. سنذهب إلى الدنيا الجديدة، دنيا العلم، بعيدين عن الحثالة والقاذورات.

زفرت هيلاري نفساً عميقاً وقالت عن عمد: قولك هذا شبيه بما كان يردده زوجي دائماً.

قال: زوجك؟ أتعنين توماس بيترتون؟ أنا لم أتعرف عليه أبداً في الولايات المتحدة، وإن كانت بعض المؤتمرات قد ضمتنا أكثر من مرة. إن جهاز تفتيت الذرة الذي وفق إليه من أعظم الاختراعات في العصر الحديث، وإنني لأجلّه وأقدره من أجل هذا. لقد كان يعمل مساعداً للبروفيسور مانهايم، أليس كذلك؟

أومأت هيلاري إيجاباً، فاستطرد بيترز: لقد قيل له إنه تزوج ابنة مانهايم، ولكنكِ طبعاً لست...

فقاطعته: أنا زوجته الثانية، فقد ماتت إلزا في أمريكا.

- آه، أذكر هذا الآن، وبعد وفاتها سافر بيترتون إلى إنجلترا ليعمل هناك، ثم أذهل العالم بأن اختفى فجأة، وضحك بيترز واستطرد: تلاشى فجأةً وهو يحضر أحد المؤتمرات في باريس وابتلعه المجهول.

كان هذا هو الذي يثير الفزع في قلب هيلاري: إن المنظمة تجيد تدبير الخطط. جميع تدابير الأمن التي اتخذت لحمايتها، جميع التدابير التي وضعت لتتبع خطواتها، كل هذا قد انهار

وذهب هباء، فلا أحد الآن يعرف مكانها. غداً سيقال إن السيدة بيترتون قد لقيت حتفها عندما سقطت بها الطائرة للمرة الثانية، ولن يخطر ببال أحد أنها الآن في قلب الصحراء منطلقة إلى المصير المجهول، حيث سبقها إليه توماس بيترتون من قبل. فقد اختفت آثارها ولم يعد باقياً إلا طائرة محترقة ورماد ست من الجثث. ترى هل يستطيع جيسوب أن يعرف أنها هي، هيلاري كرافن، لا تزال على قيد الحياة، وأن جثتها ليست بين هذه الجثث المحترقة؟ أغلب الظن أنه لن يعرف أبداً، فقد دبرت الخدعة بدهاء منقطع النظير. إنهم الآن ستة أشخاص في سيارة ميكروباص في قلب الصحراء، فكيف يمكن أن تختفي آثارها بمثل هذه السهولة؟ ألا يحتمل أن يرى السيارة أي إنسان؟ هل قضي عليهم بأن تنقطع صلتهم إلى الأبد بعالم البشر؟ إن هذا ليبدو مستحيلاً رغم براعة الخطة المدبرة ودهائها.

همست هيلاري: لكن أين نحن ذاهبون؟

فردت السيدة بيكر: مهلاً ولا تتعجلي، سوف تعرفين كل شيء في الوقت المناسب.

تابعت السيارة مسيرتها بلا هوادة وهيلاري صامتة تضرب في متاهات الخيال والوساوس، ومال رأسها فوق صدرها، وما لبثت أن أخذتها غفوة من النوم.

* * *

في رفق لمس بيترز ذراعها وهو يقول: استيقظي، إذ يبدو أننا قد بلغنا مكاناً ما.

وهبطوا جميعاً من السيارة، وكان الليل قد أرخى سدوله واشتد الظلام، وعلى ضوء أحد المشاعل ساروا إلى بيت تحف به أشجار النخيل الباسقة، وعند بابه امرأتان من البربر تتسامران بالضحك. اقتيدت النساء الثلاث، هيلاري وبيكر والراهبة، إلى غرفة فيها ثلاث مراتب وبعض الأغطية ولا شيء غير ذلك من الأثاث.

قالت السيدة بيكر: وددت لو أنني الآن في فندق قصر الجمال أنعم بالراحة على فراش وثير، فقد حطمت السيارة أضلعي.

فردت عليها الراهبة في صوت جاف به مسحة من الاسترجال: الراحة نقمة تخلق الضعف والمذلة والهوان.

فتطلعت إليها السيدة بيكر تتأملها ثم قالت: أستطيع أن أتخيلك يا آنسة فيدلهايم جاثية على الأرض فوق الحصى والأحجار تبتهلين وتصلين دون أن يداخلك التعب أو الإنهاك. ثم التفتت إلى السيدة بيترتون قائلة: بعد أن نتعشى سآتيك بقرص من الأسبرين فتستغرقين في النوم بعد مشقة هذه الرحلة المضنية.

وجيء إليهن بالطعام والشاي المعطر بالنعناع، وما أن أتين عليه متعجلات حتى هرعن إلى مراقدهن وغرقن في نوم عميق.

في الصباح قالت السيدة بيكر لصاحبتيها أن الرحلة لن تعاود مسيرتها إلا عند هبوط المساء، وجاءت إليهن الخادمتان

بثياب وطنية فقالت السيدة بيكر: منذ اللحظة سنرتدي الزي الوطني المراكشي ونخلع الثياب الأوروبية.

وأمضت النساء الثلاث نهارهن بين الفراش وبين الجلوس في سطح البيت يشرفن على مشاهدة الطبيعة التي تدور حولهن وعلى قرية تظهر لهن على البعد. وأخيراً حانت ساعة الرحيل وقد توارت الشمس وراء الأفق، وفي هذه المرة لم يستقلوا السيارة الميكروباص المقفلة، وإنما انحشروا في سيارة سياحية. وكان النساء يرتدين الزي الوطني المراكشي وعلى وجوههن نقاب مسدل، أما الرجال فلبسوا الجلاليب والعباءات الفضفاضة. وتتابعت ساعات الليل والسيارة تسير بهم عبر الصحراء الممتدة، وهم صامتون يداعب النوم أجفانهم والمقاعد غير المريحة تقض أجسادهم المرهقة.

قال آندي وقد تبدد الليل وبزغت الشمس وتوقفت بهم السيارة ونزلوا منها لتناول طعام الفطور: كيف حالك يا سيدة بيترتون؟ لقد كانت ليلة مضنية.

قالت: طول الليل والأحلام المزعجة تراودني. ثم أردفت متسائلة: أين نحن الآن يا ترى؟

- من يدري؟ فهي مجرد صحراء لا أول لها ولا آخر، وهذا يلائم الخطة المدبرة حتى لا نخلف وراءنا أثراً يُهتدى به إلينا. وأطلق ضحكته المرحة المعهودة ثم استطرد: أولاً طائرة تنفجر ويحترق ركابها كلياً، وثانياً سيارة مايكروباص عليها لوحة تشير إلى أنها لبعثة هندسية تمسح الأرض، وفي اليوم التالي سيارة سياحية تستقلها جماعة من البربر، وهو شأن

شائع في مثل هذه المناطق، أما المرحلة التالية فهي ما لا علم لنا به.

تساءلت هيلاري: لكن ما هي وجهتنا؟

فهز آندي كتفيه ورد: لا جدوى من السؤال، فتلك دائماً أسئلة لا جواب عليها.

* * *

الفصل العاشر

استمرت الرحلة الغاضة أياماً أخرى. كانت هيلاري تعيش معهم وتأكل معهم وتحدثهم وتخاطبهم، ومع ذلك فقد ظلت طوال الوقت تحس أنها بعيدة عنهم لا تشاركهم آراءهم ومعتقداتهم، كأنما بينهم وبينها سد هائل. فهذا هو الدكتور بارون لا يتمنى إلا شيئاً واحداً، هو أن يحصل على النقود فيغرق نفسه في معمله بين أجهزته وأنابيب الاختبار، وكان من حين لآخر يحدثها عن قوة التدمير المروعة التي يمكن أن تحتوي عليها أنبوبة في حجم قبضة اليد، وسألته: ولكن أيمكنك حقاً استعمالها؟

نظر إليها بانفعال جنوني وقال: ولم لا؟ ما دام الأمر ضرورياً.

وسرى الرعب في أوصالها وهز أعماقها هزاً عنيفاً، وداخلها شعور بالخوف منه ومن الآخرين. ها هو ذا الرجل يتحدث بمنتهى الاستخفاف عن إبادة الملايين من البشر دون أن تهتز شعرة في رأسه. وكذلك كانت هيلاري تكره تلك السيدة المتعجرفة المستعلية هيلدا نيدهايم، ولكنها كانت تميل

إلى آندي بيترز وإن أفزعها منه ذلك الوميض المتألق الذي كان يغشى عينيه من حين لآخر.

قالت له يوماً: أنت لا تريد خلق دنيا جديدة لأن الذي يسعدك هو تدمير هذه الدنيا التي نعيش فيها.

قال مستنكراً: ماذا تقولين يا أوليف؟

- الأمر واضح ولست مخطئة، إنني أكاد ألمس الحقد الذي يتأجج به صدرك. الحقد، الكراهية، الرغبة في التدمير... هذا هو ما يجيش به صدرك.

أما نظرة هيلاري لإيريكسون فكانت مختلفة. فهو رجل حالم، رجل مثالي متعلق بالأوهام. كان دائماً يردد: نحن معشر العلماء يجب أن نسود العالم، نحن الذين يجب أن نحكم ونسيطر، مقاعد الحكم لم تخلق إلا للعباقرة...

وهكذا كانوا جماعة واحدة يضمهم مكان واحد، ولكن معتقداتهم ونوازعهم كانت متنافرة متناقضة، بيد أنه كان يجمعهم هدف مشترك، ذلك أنهم كانوا جميعاً يتطلعون إلى وهم وسراب.

وفي نهاية اليوم الثالث هبطوا قرية صغيرة ونزلوا في خان وطني متواضع، وطلبت إليهم السيدة بيكر أن يخلعوا الزي المراكشي وأن يعودوا إلى ثيابهم الأوروبية. قالت لهم: أرجو أن تسرعوا لأن الطائرة تنتظرنا.

قالت هيلاري في استغراب: الطائرة؟

- نعم، فحسبنا هذه السيارة التي قضت منا الأضلع.

استقلوا الطائرة، وكان القائد فرنسي الجنسية بارعاً بمهنته، وطاروا بضع ساعات فمرت بهم الطائرة بأمان من وسط الجبال الشاهقة، وبعد ظهر اليوم التالي أخذت الطائرة تهبط إلى الأرض حتى استقرت عجلاتها على سهل تحف به الجبال في مطار بدائي يقوم عند طرفه البعيد بناءٌ أبيض، فمشت بهم السيدة بيكر إلى البناء وهي تقول آمرة: عليكم أن تغتسلوا وتتناولوا القهوة قبل أن تستقلوا السيارات.

واغتسلوا ومشطوا شعورهم، وجاءهم الخدم العرب بالقهوة والسندويشات وتأهبوا لمواصلة السفر. قالت السيدة بيكر وهي تنظر في ساعتها: لقد آن لي أن أترككم أيها الأصحاب، فتلك هي المرحلة الأخيرة من الرحلة.

سألتها هيلاري: أراجعة أنت إلى مراكش؟

- وكيف أرجع إليها والمفروض أنني ميتة احترقت بي الطائرة التي سقطت؟ إن ورائي مهام أخرى في بلاد ثانية.

قالت هيلاري: ولكن هبي أن أحداً التقى بك صدفة ممن عرفوك في مراكش؟

ضحكت السيدة بيكر وقالت: وهل يصعب عليّ أن أتخلص من هذا المأزق؟ سأزعم بأن لي شقيقة تشبهني تمام الشبه وهي التي احترقت في الطائرة، وطبعاً سيكون لديّ جواز سفر باسم آخر وسأغير لون شعري ونبرات صوتي.

فازدادت هيلاري إعجاباً بالخطة المدبرة، وودعت السيدة بيكر رفاق السفر، فاستقلت الطائرة وما لبثت أن علت في الجو وتوارت وراء الأفق.

* * *

جاءهم أحد الخدم العرب قائلاً: السيارات جاهزة أيها السادة.

كانت بانتظارهم سيارتان كاديلاك يقودهما سائقان يرتديان الزي الرسمي، فاتخذت هيلاري جلستها في المقعد الأمامي بجانب السائق الفرنسي، وكانت من حين لآخر تحدثه حديثاً عابراً عن المشاهد التي تمر بها السيارة. وسألته أخيراً: ترى هل تطول الرحلة؟

- المسافة من المطار إلى المستشفى تستغرق نحو ساعتين يا سيدتي.

طنّت الكلمات في أذنيها، ولأول مرة فطنت إلى أن هيلدا نيدهايم كانت تلبس الآن زي الممرضات. وعادت تسأل السائق الفرنسي: حدثني قليلاً عن المستشفى.

- إنه من أروع المستشفيات في العالم ومزود بأحدث الأجهزة العلمية، وكثير من كبار الأطباء يزورونه من حين لآخر ثم يرحلون وهم يثنون عليه أعظم الثناء. إن الأبحاث التي تجري فيه لخير الإنسانية جمعاء.

قالت هيلاري تجاريه: طبعاً، هذا لا شك فيه.

استطرد السائق: فيما مضى كان هؤلاء التعساء يرسَلون إلى جزيرة مهجورة فيقضون ما تبقى من حياتهم حتى يدركهم الموت، أما الآن فهم يعالَجون هنا بالدواء الذي اكتشفه الدكتور كولوني، وقد ثبت نجاحه في معظم الحالات حتى الحالات المستعصية المزمنة.

وعجبت هيلاري لحديث السائق، إذ لم تكن تدري من هؤلاء الذين نعتهم بالتعساء ولا أي داء يعانون. وتوقفت بهم السيارة أمام المستشفى فاستقبلهم زنجي يرتدي ثياباً بيضاء فتح لهم البوابة ودعاهم للدخول، ورأت هيلاري نفسها في فناء كبير حجز معظمه بسور من القضبان والأسلاك، وكان وراء السور جماعة من الناس يتمشون رائحين غادين، فاستداروا ينظرون للقادمين الجدد، وعندها هتفت هيلاري وهي تشهق في رعب: يا إلهي! إنهم مصابون بالجذام.

ولفرط فزعها طغت على أوصالها رعدة كادت معها أن تتهاوى إلى الأرض مغشياً عليها.

* * *

الفصل الحادي عشر

أُغلقت البوابة وراء القادمين الجدد مرسلة رنيناً حاداً بدا من هذا السكون الشامل وكأنه صادر من مطارق تدق السندان دقاً عنيفاً، وخيّل إلى هيلاري أن رنين البوابة كان يحاكي صوتاً يقول: أنتم يا من تدخلون، اطرحوا الأمل فأنتم لا تعودون. نعم، تلك هي النهاية، النهاية الحقيقية، نهاية بلا رجعة، إنها الآن وحيدة وسط الأعداء ولن تمضي دقائق معدودات حتى تواجه باكتشاف أمرها وانفضاح سرها. ودار بخلدها: الآن انطبقت عليّ المصيدة ولم يعد أمامي سبيل للفرار. سوف لا يقع عليها بصر توماس بيترتون حتى ينطلق صارخاً: ولكن هذه ليست زوجتي! وتنتهبها العيون من كل جانب بنظرات حانقة، جاسوسة في وسطهم!

وخطر لها أن تعكس الموقف، فبدلاً من أن يصرخ بيترتون بأن هذه ليست زوجته ستبادر هي إلى القول بمجرد أن يقع بصرها عليه: كلا، ليس هذا زوجي! وإذا استطاعت أن تجعل الحماس يدب في صوتها والرعب يطل من عينيها فسوف تنجح في إثارة الشك. سوف يرتابون ويتساءلون: ترى هل بيترتون هو حقاً بيترتون أم هو عالم آخر انتحل شخصيته واندس بينهم؟ هل هو

الجاسوس؟ أما هي فالزوجة الحقيقية، ولكن أليس معنى هذا أن يصبح بيترتون هو الضحية وأن يقضى عليه بالهلاك؟ إن ضميرها لن يبكتها ولن تندم أبداً، فبيترتون خائن، انحاز إليهم وجاء إليهم يبيعهم أسرار بلاده، فهو أهل لأن يموت دون شفقة أو رحمة!

وانتزعها من خواطرها اليائسة رجل عملاق الجسم وسيم الوجه أقبل على الجماعة يستقبلهم ويحييهم واحداً بعد الآخر، وحين مد يده يصافح هيلاري رسم على شفتيه ابتسامة باهتة مصطنعة وقال لها: لا شك أنك متلهفة للقائه.

واشتد اضطرابها وأخذتها غشية عابرة من الدوار وشردت عيناها بنظرة تجردت من التعبير. وبادر آندي بيترز يلمس ذراعيها في رفق ويسندها وهو يقول للمضيف الذي جاء يرحب بهم: لعلك لا تعلم أن الطائرة قد سقطت بالسيدة بيترتون وأنها أصيبت بارتجاج في المخ، وقد زادتها هذه الرحلة المضنية المتواصلة إرهاقاً فوق إرهاق. يجب أن تستريح الآن ساعة أو ساعتين في غرفة معتمة.

استشفت هيلاري من صوته ومن ذراعه التي تسندها بادرة من الرحمة والإشفاق، ولكنها استجمعت قواها ورفعت رأسها وقالت: لا، لا، يجب أن أقابل توم، اذهبوا بي إليه في الحال، أريد أن أراه حالاً.

قال الرجل العملاق الوسيم: طبعاً يا سيدة بيترتون، أستطيع أن أدرك حقيقة مشاعرك.

وأشار إلى امرأة تقف على قيد خطوات وهو يقول: دعوني

أقدم لكم السيدة جينسون. وقدم إليها القادمين الجدد كل واحد بدوره ثم قال: ستصحبكم السيدة جينسون إلى مكتب التسجيل وتقدم إليكم شراباً ريثما أصحب السيدة بيترتون إلى زوجها، وسأعود إليكم بعد برهة صغيرة.

واستدار منصرفاً وفي أعقابه هيلاري كرافن، وحانت منها لفتة إلى الوراء ورأت بيترز يتابعها ببصره، وخيّل إليها أنه يهم في تردد أن يلحق بها، ثم آثر البقاء، قال لها الرجل وهو يمشي بها في دهليز طويلة ملتوية: اسمي بول فان هايديم.

قالت له هيلاري: إنه لأمر فظيع مرعب... أعني هؤلاء المجذومين.

- لن تلبثي أن تألفي رؤيتهم.

وتوقف فجأة عند أحد الأبواب وقرع الباب، وتريث برهة، ثم فتحه وقال: بيترتون، ها هي هنا أخيراً زوجتك.

وتنحى عن الباب ليفسح لها مكاناً للدخول، فدخلت هيلاري إلى الغرفة. الآن لا سبيل إلى التراجع، لا سبيل إلى التردد، تقدمت إلى الداخل... تقدمت أماماً إلى القدر المحتوم.

كان الرجل واقفاً عند النافذة، وحين استدار إليها أدهشها أن رأته شديد الوسامة. إن الصورة التي رأتها لتوماس بيترتون لم تكن على مثل هذه الوسامة، بل كانت مختلفة إلى حد غير قليل. ووافتها الفكرة على الفور بسبب هذا الاختلاف واستقرت عليها. تقدمت إلى الأمام في خطوة سريعة ثم ارتدت متراجعة إلى الوراء، ورن صوتها في أرجاء الغرفة نابضاً بالفزع

واليأس: ولكن هذا ليس هو توم، إنه ليس زوجي!

لقد أدت دورها بإتقان منقطع النظير، وتلاقت عيناها الحائرتان بعيني فان هايديم. عندئذٍ ضحك توم بيترتون، وكانت ضحكته لطيفة هادئة، والتفت إلى فان هايديم الواقف بمدخل الباب وقال له: هذا رائع، ما دامت زوجتي نفسها لم تعرفني!

وأسرع إلى هيلاري فاحتواها بين ذراعيه وضمها إلى صدره وهو يقول: أوليف، حبيبتي، أنت تعرفينني طبعاً، أنا توم طبعاً وإن لم يعد لي نفس الوجه الذي عرفتني به من قبل. وظل يضمها إلى صدره وألصق فمه بأذنيها وهمس: مثلي دور الزوجة بالله عليك، إنني في خطر!

وخلى عنها ذراعيه، ثم عاد يعانقها مرة أخرى وهو يقول: آه يا حبيبتي! كانت الشهور التي انقضت بمثابة دهور ودهور، ولكن شكراً لله، ها نحن أخيراً قد التقينا.

وأحست بأصابعه تنغرز في جسدها محذرة، منذرة متوسلة ضارعة، وتلقت الرسالة ووعتها. واستطرد بصوت عالٍ: انظري يا حبيبتي، أنا توم، لا شك أنك عرفتني الآن.

وتلقفت هيلاري النجدة الإلهية وتشبثت بها وغمغمت: آه، حبيبي توم! أنت توم طبعاً، لا شك أن إصابتي بالارتجاج جعلتني أفقد ذاكرتي برهة.

- ليس هذا فقط وإنما أيضاً جراحة التجميل. الدكتور هيرتز جراح التجميل المشهور موجود هنا وقد أصلح أنفي المهشم بسبب حادث السيارة.

واستدار يتطلع إلى فان هايديم فوجده يبتسم مغتبطاً. وقالت هيلاري: أنا آسفة يا حبيبي، الارتجاج والرحلة الشاقة... كل هذا أثر عليّ.

فقال لها زوجها المزعوم: هوني عليك يا حبيبتي. بعد شيء من الراحة سيزول كل أثر للارتجاج.

وانسحب فان هايديم وأغلق الباب وراءه. ضمها إلى صدره وهمس بأذنيها بصوت لا يكاد يسمع: استمري في تمثيل دورك، فقد يكون في الغرفة ميكروفون مخبأ. وهمست بدورها وهي تسند رأسها إلى صدره: أو ربما ثقب خفي في الجدار يراقبوننا من خلاله.

وجلسا يتناجيان ويستعيدان بعض الذكريات السعيدة، وسألته: هل أنت سعيد هنا؟ كان سؤالاً طبيعياً يجب أن توجهه أية زوجة لزوجها، فقال: الحياة هنا رائعة. ولكن نظراته كانت تنم عن الخوف والانزعاج، فسألته: ولكن هؤلاء المجذومين... أهذه حقاً مستعمرة للجذام؟

فضحك وقال: مجرد ستار نخفي وراءه حقيقة أبحاثنا وأهدافنا. ثم أردف: والآن تعالي لنلقي نظرة على الجناح المخصص لإقامتنا.

وطاف بها غرف الجناح وهو يتأبط ذراعها، وحين عاد بها سألها: أتحبين أن تستريحي قليلاً؟

وإذ أجابت بالنفي قال لها: إذن هيا بنا إلى مكتب التسجيل، إذ لا شك أنهم في انتظارنا الآن.

الفصل الثاني عشر

كانت السيدة التي ترأس مكتب التسجيل شبيهة بالسجانات في صرامة وجهها وجمود قسماتها، فرحبت بالدكتور بيترتون في كلمات وجيزة مقتضبة ثم قالت له: إذن فقد جاءت السيدة بيترتون أخيراً؟

كان يبدو من لكنتها أنها سويسرية. وأشارت إلى هيلاري تدعوها للجلوس وفتحت درجاً تناولت منه عدة استمارات نشرتها فوق المكتب ومضت تدون بعض البيانات. قال بيترتون: أنا ذاهب إلى عملي يا أوليف فالحقي بي عندما تفرغين.

وانصرف بيترتون وأغلق الباب خلفه، ونظرت رئيسة مكتب التسجيل إلى هيلاري وقالت: والآن، اسمك بالكامل والسن ومحل الميلاد، وأسماء الأبوين والأمراض الخطيرة، وما هي هواياتك المختلفة والأعمال التي التحقت بها، ومؤهلاتك العلمية، والأطعمة التي تفضلينها... وهناك أسئلة أخرى سوف أوجهها إليك فيما بعد.

فتبسمت هيلاري بإعياء وأخذت تجيب على الأسئلة، والسيدة ماضية في تدوينها بالاستمارات التي أمامها. وأخذت

الأسئلة تتوالى عليها تباعاً حتى كأنها سيل جارف لا ينتهي، وأخيراً رفعت السيدة رأسها وقالت: هذا هو ما يختص به هذا المكتب، والآن سأبعث بك إلى الطبيبة شوارتز لتفحصك من الناحية الطبية.

فسألت هيلاري: وهل هذا ضروري؟

- ضروري جداً يا سيدة بيترتون، لأننا هنا نؤمن بالكمال ونحب أن نثبت كل شيء في السجلات.

وقامت الطبيبة شوارتز بفحص هيلاري فحصاً دقيقاً استغرق برهة قصيرة، ثم قالت لها: والآن عليك أن تذهبي إلى الدكتور روبيك.

فسألت هيلاري: ومن يكون الدكتور روبيك هذا؟

- طبيب نفساني.

- ولكني لست بحاجة إلى طبيب نفساني.

فقالت الطبيبة شوارتز تخفف عنها: لا داعي للانزعاج يا سيدة بيترتون. إن كل ما سيجري بينكما لا يعدو اختباراً للذكاء وتحديد معالم شخصيتك.

كان الدكتور روبيك سويسرياً في الأربعين من العمر، فرحب بها في لطف ودماثة، وتصفح البطاقة التي بعثت بها إليه الطبيبة شوارتز ثم قال: يسعدني أن أعرف أن صحتك جيدة يا سيدة بيترتون. ثم أردف: لقد بلغني أنك تعرضت لحادث سقوط طائرة منذ مدة وجيزة، أليس كذلك؟

فقالت: نعم، وقد أمضيت خمسة أيام في مستشفى كازابلانكا.

- ولكن خمسة أيام لا تكفي أبداً، كان يجب أن يستبقوك أكثر من هذا.

- كنت تواقة لمغادرة المستشفى لأواصل رحلتي.

- هذا تصرف غير سليم، فالإصابة بارتجاج المخ تحتاج إلى فترة طويلة من الراحة والاستجمام. أنت قد تبدين سليمة في البداية، ولكن هناك احتمالاً كبيراً لآثار جانبية خطيرة. إن جهازك العصبي فيما أرى مضطرب إلى حد ما، وهذا راجع دون شك لمشقة الرحلة والارتجاج في الوقت نفسه. ثم سألها: هل تشعرين بصداع؟

- نعم، صداع شديد جداً، ومن حين لآخر أشعر بدوار وأفقد ذاكرتي.

- طبعاً، طبعاً، أستطيع أن أدرك هذا. والآن سأجري بعض الاختبارات لتبين مستوى عقلك.

ومضى الطبيب روبيك يجري عليها اختباراته ويوجه إليها بعض الأسئلة ويدون حصيلة ذلك كله في استمارة أمامه، وأخيراً قال: أتنمى ألا يسيء لك يا سيدتي القول أنه مما يسعدني فحص شخص ليس من العلماء العباقرة.

فضحكت هيلاري قائلة: وما الذي يسيء لي في هذا؟ أنا أعلم أنني لست بالعبقرية أو النابغة.

فقال الطبيب: وهذا من حسن حظك يا سيدتي، فإن حياة العباقرة جحيم لا يطاق. واستطرد: أنا هنا لا أتعامل إلا مع قوم مفرطي الذكاء، وهؤلاء معرضون دائماً للاختلال العصبي تحت وطأة الضغط الذي يعانونه، فالعالِم يا سيدتي ليس بارداً هادئاً كما يبدو في الظاهر لأن انهماكه في عمله يجعل أعصابه مرهفة إلى أقصى حد، ولا فرق في هذا إطلاقاً بين الممثلة الأولى أو بطل التنس أو عالم الذرة.

فردت هيلاري: صدقت، فقد خبرت هذا بنفسي.

إذ كان من المفروض أنها عاشرت بيترتون فترة طويلة باعتبارها زوجته، وهو دون شك من العلماء العباقرة. وكأنما شاء أن يقتضب الحديث فمد يده بغتة يصافحها وهو يقول: والآن ستذهبين إلى الآنسة لاروش فتمضي بك إلى قسم الملبوسات لتختاري ما يروقك من الثياب.

كانت جميع النساء اللاتي التقت بهن هيلاري حتى تلك اللحظة يعملن كأنهن آلات ميكانيكية ذكرتها بالإنسان الآلي، أما الآنسة لاروش فكانت على العكس، مرحة متدفقة الحيوية، واطمأنت هيلاري للقائها.

قالت الفتاة: أنا سعيدة بأن أتعرف إليك يا سيدتي وأتمنى أن أوفق في تقديم كل مساعدة ممكنة. وبما أنك قد وصلت لتوك فلا شك أنك لا زلت متعبة، ولذلك أشير عليك بأن تكتفي الآن بانتقاء الثياب الداخلية الضرورية وفستان واحد، وغداً وفي خلال الأيام التالية يمكنك إلقاء نظرة على ما لدي من ثياب ومن مستحضرات التجميل.

ردت هيلاري معقبة: كل ما أرجوه من دنياي أن أتملك مشطاً وفرشاة.

فضحكت الآنسة لاروش في مرح ومضت تدون مقاسات عميلتها في مفكرة لديها، ثم قالت: سأبعث على الفور إلى جناحك بكل ما وقع عليه اختيارك، وإنه ليسعدني أن تترددي على المحل من حين لآخر، فقد تبين أن لك ذوقاً رفيعاً في الاختيار. أما هؤلاء السيدات العالمات فقد ضقت ذرعاً بهن، خاصة وأنهن لا يبدين أي اهتمام بمستحضرات التجميل. ثم استطردت: منذ نصف ساعة كانت لدي هنا واحدة منهن أثارت أعصابي... إحدى زميلاتك في السفر.

قالت هيلاري: لعلك تعنين هيلدا نيدهايم؟

- تماماً هذا هو اسمها، فهي ألمانية طبعاً، والألمانيات عادة لا يحفلن بالتجميل. مع أنها يمكن أن تبدو جميلة لو هي أبدت بعض الاهتمام بنفسها، فهي دكتورة فيما فهمت، ولكن الرجل لا يبحث عن المؤهلات العلمية وإنما عن لمسة من الجمال والأنوثة.

بدت الآنسة جينسون في مدخل الغرفة وفوق عينيها نظارة صغيرة عتيقة الطراز وقالت: إذا كنت فرغت يا سيدة بيترتون فسأصحبك لمقابلة نائب المدير الدكتور نيلسون.

فقالت هيلاري في نفسها: كل من هنا يحمل لقب دكتور، عداي أنا. ثم علت بصوتها متسائلة: وما هو تخصصه؟

- إنه ليس طبيباً، فهو حاصل على دكتوراة في فن الإدارة

ومن عادته أن يقابل كل وافد جديد ليتحدث إليه، ولكنك لن تقابليه بعد هذا إلا إذا ثارت مشكلة مهمة.

* * *

نهض الدكتور من خلف مكتبه يحييها، وشد على يدها في حرارة وقال لها: يسعدني مشاهدتك بيننا يا سيدة بيترتون، ودعيني أهنئك بالنجاة من هذا الحادث المؤسف الذي وقع لطائرتك.

شكرته على لطفه، واستطرد يقول: أنا مستعد لأن أجيب على أي سؤال يخطر بذهنك، فهل لديك ما تحبين أن تستفسري عنه؟

فبدت علامات الحيرة في وجهها وقالت: الحق أنني لا أعلم، ولكن لعل كل ما يعنيني أن أستفسر عنه هو أن أعرف أين أنا الآن؟

ابتسم نيلسون وأجاب: أفهم ما يجول في ذهنك. إنكم تعتقدون جميعاً للوهلة الأولى لفرط ما سمعتم من مفتريات أنكم ذاهبون إلى موسكو، خلف الستار الحديدي. ولكن لا يا سيدتي، أنت الآن في أفريقيا، في قلب الصحراء المراكشية، ومستعمرة الجذام التي تعيشين الآن بين أسوارها هي بمثابة الستار الحديدي لأنها ترد عن علمائنا المتطفلين الذين يحاولون أن يكتشفوا مقرهم.

فردت: صدقت، فقد تخيلت في البداية أننا مسافرون إلى موسكو.

واستطرد الدكتور نيلسون: ستعيشين هنا في عزلة تامة عن العالم، ولكن وسائل الترفيه والتسلية متوافرة. إن لزوجك عمله الذي قد يشغله عنك، فقد ينكب على العمل ليل نهار ولا يتفرغ لك إلا نادراً، ولكن يمكنك أن تشغلي نفسك بقضاء الوقت مع زوجات العلماء وسوف تجدينهن لطيفات ودودات.

سألته بشيء من الإحجام: لكن هل يسمح لنا بالخروج؟

فنظر إليها وقال متردداً: الخروج يا سيدة بيترتون؟

ثم قال برقة: سؤال طبيعي لا بد أن يصدر من كل وافد جديد. لكن المبدأ الأساسي الذي تدين به منظمتنا هو أننا هنا في دنيا قائمة بذاتها، لا شيء يدعونا لتجاوز حدودها لنذهب خارجها، فهي دنيا كاملة ذات اكتفاء ذاتي شامل.

* * *

الفصل الثالث عشر

قالت هيلاري وقد عادت إلى جناحها: إن الحياة هنا شبيهة بجو المدارس.

فقال بيترتون: هذا ما يحسه المرء في البداية، أنا نفسي داخلني هذا الشعور حين جئت.

كان الحديث بينهما يدور في تحفظ وحذر خشية أن يكون هناك ميكروفون مدسوس بين الأثاث أو في الجدران. ثم أردف: وهذا ما يعود بنا إلى عهد الطفولة السعيدة.

وغمز بعينه، فلم يغب عنها النذير المقصود وبدا لها الأمر كله عجباً. فهي في قلب الصحراء تشارك شخصاً غريباً السكن في غرفة واحدة، ومع ذلك فإن في التوجس والقلق والخطر المسيطر عليهما ما جعل الرابطة التي بينهما مفككة منفصمة. وعادت إلى الحديث فقالت: لقد أجروا عليّ عدة فحوص طبية ونفسية.

- هذا ما يفعلونه دائماً مع القادمين الجدد.

- فهل فُحصت أنت أيضاً؟

- إنه أمر طبيعي.

- وبعد ذلك قابلت نيلسون، نائب المدير، فتبادلنا الحديث فترة قصيرة.

- إنه إداري حازم قدير.

- ولكني لم أقابل المدير بعد.

- أحسب أنك لن تقابليه أبداً، وإن كان يلقي علينا بعض المحاضرات من حين لآخر. إنه رجل ذو شخصية جذابة.

وقطب بيترتون جبينه فأدركت أنه يريد أن يثنيها عن مواصلة الحديث، فما كان منها إلا أن لاذت بالصمت. ثم قال لها: إنهم يتناولون العشاء هنا ابتداء من الثامنة مساء، فيحسن بنا أن نستعد للنزول يا عزيزتي.

أبدلت ثيابها وارتدت الفستان الذي جاءت به من قسم الملابس وتحلت بعق من اللآلئ المقلدة، ثم هبطا معاً إلى قاعة الطعام. وخفت الآنسة جينسون إلى استقبالهما قائلة: لقد أعددت لك يا توم مائدة كبيرة يشارككما فيها بعض الرفاق، زوجتك في السفر فضلاً عن ماشيسون وزوجته.

وأرشدتهما إلى المائدة المقصودة، وكان آندي بيترز وإيريكسون قد سبقا إليها وانتظما حولها، وقدمت زوجها إلى الرجلين، وما لبث الدكتور مارشيسون وزوجته أن لحقا بهم، وقدمهما بيترتون إلى الآخرين وهو يقول: سيمون وأنا نشتغل معاً في معمل واحد.

كان سيمون مارشيسون شاباً نحيفاً في السادسة والعشرين ذا وجه باهت اللون، أما امرأته بيانكا فكانت ممتلئة الجسم إلى حد ما وفي حديثها لكنة أجنبية واضحة. رحبت بيانكا بهيلاري في لهجة مهذبة ولكن في شيء من التحفظ، ثم قالت متسائلة: أنت لست عالمة فيما أعتقد؟

– نعم، لم أتلق تدريباً علمياً فقد كنت أعمل سكرتيرة قبل زواجي.

وقال الدكتور مارشيسون: لقد درست زوجتي الاقتصاد والقانون التجاري، وهي تلقي علينا بعض المحاضرات من حين لآخر، وإن كانت لا تجد إلا نفراً قليلاً يؤم محاضراتها.

فهزت بيانكا كتفيها باستخفاف وقالت: لقد استطعت على أية حال أن التمس هنا ما أشغل به وقتي، فقد بدأت في دراسة أحوال مجتمعنا هذا حتى أعمل على تطويره وتحسينه، وما دامت السيدة بيترتون غير قائمة ببحث علمي ففي وسعها أن تساعدني في مهمتي.

وسارعت ترحب بالاقتراح. وأضحكهم آندي بأن قال: أرجو أن يعهدوا إليّ بالعمل على الفور وإلا انقلبت تلميذاً أمضي وقتي في لعب البلي.

قال سيمون مارشيسون في حماس: هذا مكان رائع للبحث العلمي، فكل الأجهزة متوافرة ولا أحد يقحم نفسه أو يقطع عليك عملك.

وسأله بيترز: ما تخصصك يا دكتور؟

وأخذ الرجلان يتداولان حديثاً علمياً بحتاً، فتحولت السيدة بيترتون إلى إيريكسون الذي كان متراخياً في مقعده بعينين شاردتين وسألته: وأنت؟ أتراك أيضاً تحس حنيناً إلى الوطن؟

فتأملها بنظرة شاردة وقال: أنا رجل لا أؤمن بمثل هذه الترهات الفارغة، الوطن وروابط الأسرة والطفل ومشاعر المحبة والوفاء... كل ذلك هراء، إن المرء لكي يعمل يجب أن يكون حراً طليقاً لا يشده أي نوع من القيود.

- أوَتشعر أنك هنا ستكون حراً طليقاً؟

- هذا ما أرجوه، وإن كنت لا أدري الحقيقة حتى الآن.

ومالت بيانكا إلى هيلاري تقول: بعد العشاء لدينا الكثير مما نشغل به وقتنا. غرفة لعبة البريدج مثلاً وألعاب الورق الأخرى، قاعة للسينما تعرض أفلاماً حديثة، وقاعة للتمثيل تعمل ثلاثة أيام كل أسبوع، وكذلك سهرات وحفلات من حين لآخر.

قطب إيريكسون جبينه وقال: كل هذا لا جدوى من ورائه. إنه يصرف الباحث عن عمله ويبدد نشاطه.

فقالت بيانكا: لكن هذا الذي تسميه لغواً ضروري لنا معشر النساء.

فنظر إليها بنظرة باردة كأنما يقول: وحتى أنتن معشر النساء لا ضرورة لكن.

وتعمدت هيلاري أن تتثاءب وقالت: أما أنا فسآوي إلى فراشي مبكرة، إذ لا زلت متعبة مرهقة.

فردت بيانكا: أنت على حق يا عزيزتي، فقد كابدت الأهوال فضلاً عن هذه الرحلة المضنية.

وقال بيترتون وهم يتركون المائدة: الجو الليلة منعش لطيف، وقد اعتدنا أن نقضي بعض الوقت في حديقة السطح قبل أن نمضي إلى العمل أو النوم، فلمَ لا تصحبيننا يا عزيزتي أوليف؟

كانت حديقة السطح تحفة فنية رائعة، كانت بستاناً حافلاً بأجمل أنواع الزهور وأندرها وتتوسطها نافورة صغيرة يتدفق منها الماء رشاشاً متناثراً تنعكس عليه أضواء خلابة. قالت هيلاري في افتتان: لا أصدق ما ترى عيني، أيكون هذا في قلب صحراء قاحلة مجدبة؟

فقال مارشيسون: صدقت يا سيدة بيترتون، ولكن ما دام الماء غزيراً والمال متوفراً فلا شيء مستحيل.

- لكن من أين لكم بهذا الماء الغزير؟

- من نبع عميق حفرناه في الجبل بأحدث الأساليب العلمية.

وأخذوا يتمشون في حديقة السطح قليلاً ويتسامرون بالحديث، ثم انسحبوا واحداً بعد الآخر فلم يبق أخيراً إلا توماس بيترتون وزوجته هيلاري. فأخذ بيدها وأجلسها

على أحد المقاعد المتناثرة في أنحاء الحديقة، ثم وقف في مواجهتها وحدجها بنظرة متسائلة وقال: والآن، من أنت بالله عليك؟

فرفعت وجهها تنظر إليه برهة دون أن تجيب، وبدلاً من أن ترد على سؤاله قالت تسأله: لماذا كذبت فزعمت أنني زوجتك؟

فتبادلا نظرات صامتة، وأخيراً قال بيترتون: مجرد نزوة طائرة، فقد خطر لي أنكِ ربما جئت لتخرجيني من هنا.

فعادت تسأله: ولكن كيف جئت إلى هنا؟

فصدرت عنه ضحكة مبتورة وقال: إذا كنتِ تقصدين أنني قد اختُطفت أو شيئاً من هذا القبيل فانزعي هذه الفكرة من رأسك، فقد أتيت إلى هنا من تلقاء نفسي وبمحض إرادتي وكنت ممتلئاً حماسة.

- وهل كنت تعرف أنك قادم إلى هذا المكان؟

- كلا، لم يخطر لي أبداً أنني سآتي إلى أفريقيا ولم أحاول أبداً أن أسأل، فقد احتواني البريق الخادع وأخذتني الكلمات الحماسية: السلام العالمي والحرية المطلقة، اقتسام الأسرار العلمية بين دول العالم جمعاء، القضاء على الرأسماليين وتجار الحروب... نعم، كل هذه الترهات المزوقة. وصاحبنا بيترز الذي صحبك في رحلتك، لقد ابتلع الطعم أيضاً.

- وما الذي اكتشفته بعد أن وصلت؟

– سوف ترين بنفسك، لكن يكفي أن أقول لك إن الحرية التي حلمنا بها لا وجود لها هنا.

وجلس بجانبها على الأريكة مقطب الجبين وقال: نفس الوضع هو الذي أثارني في إنجلترا وجعلني أكره البقاء فيها. تدابير الأمن الصارمة والتجسس على حريتي وسكناتي، تعقب خطواتي ومحاسبتي على كل كلمة أتفوه بها، كل هذا حطم أعصابي. واستطرد بنفس النبرة اليائسة المكتئبة: ثم جئت هنا فإذا الفردوس مجرد سراب، فقد عانيت نفس الأوضاع، بل أشد هولاً. يوجد أحدث الأجهزة العلمية رهن إشارتنا والمال متوفر لإجراء الأبحاث التي نريدها، ولكني مع هذا لا أملك إلا أن أشعر بأنني في سجن تحفّ به الأسوار والقضبان.

فران عليهما الصمت، ثم استدار إليها متسائلاً: والآن فلنعد إلى ما كنا فيه. ما الذي جعلك تحضرين إلى هنا وتزعمين أنك أوليف؟

قالت: أوليف...

ثم أمسكت تلتمس الكلمات الملائمة لكي تجيب على السؤال، وعاد يتساءل: ولكن أين أوليف؟ ما الذي جرى لها؟

ناورت وتحايلت على الكلمات، ثم اضطرت أخيراً أن تجيب. وحملق فيها شارداً ثم قال: إذن فأوليف قد ماتت؟!

وغرق في صمت طويل، ثم رفع رأسه أخيراً وقال: أوليف ماتت وحللت أنت مكانها، ولكن لماذا؟

كان الجواب حاضراً في ذهنها. لم تكن هيلاري كرافن

حتى هذه اللحظة مطمئنة تماماً إلى بيترتون، وكانت تراه مزعزع الأعصاب وشيكاً على الانهيار فمن دواعي الحكمة أن تحجب عنه أسرارها. لقد قال لها في بداية الحديث إنه حسبها جاءت لكي تنقذه وتخرجه من هنا، فلم لا تجاريه فيما يظن؟ إن من الحماقة أن تصارحه بأنها مجرد جاسوسة أرسلها جيسوب لتوافيه بما تقع عليه من معلومات.

فردت تجيب على سؤاله: لقد كنت مع زوجتك في المستشفى حيت ماتت، فتطوعت لأداء هذه المهمة وقررت أن أنتحل شخصيتها واسمها، خاصة وأن قوامي يشبه قوامها وشعري الأحمر بلون شعرها.

- فعلاً، إن لك نفس الشعر النحاسي. لكن ما هي الرسالة التي أرادت أوليف أن تبلغها إليّ؟

- أتعرف شخصاً يدعى بوريس؟

- نعم، بوريس جلايدر. أنا لم أقابله قط لكنه ابن عمة زوجتي السابقة.

- لقد أرادت أوليف أن تكون منه على حذر، قالت إنه خطير.

- خطير؟ ولماذا يكون خطيراً عليّ؟ هذا عجيب. أتراه قابل أوليف؟

- هي لم تقابله ولكنها تلقت رسالة منه.

- وما الذي قاله لها؟

- هذا ما لا علم لي به، ولكنها ذكرت جملة أخرى، قالت: "تذهبين؟ تذهبين؟ اذهبي وحدثيه عن بوريس. إنني لا أصدق هذا، لا أستطيع أن أصدق، ولكن ربما كان صحيحاً، وإذا كان فيجب أن... أن يكون على حذر". كانت هذه آخر كلمات نطقت بها، ثم لفظت النفس الأخير.

- بوريس؟! ولكن لماذا، لماذا؟ هذا أمر لا أستطيع أن أتبينه. ولاذ بالصمت برهة ثم عاد يقول: يا إلهي! لقد قضي عليّ بأن أبقى هنا إلى الأبد خلف القضبان.

فردت هيلاري بصوت مليء بالثقة والإيمان: بل لا بد أن نخرج من هنا.

- لكن كيف؟ كيف؟ إن هذا مستحيل.

- لا يوجد مستحيل في هذه الدنيا، سنجد وسيلة.

لم تكن هيلاري مؤمنة بما تقول ولكنها أرادت أن تبث في نفسه الشجاعة والأمل حتى لا تنهار أعصابه، فأكملت: لا داعي لليأس، هناك سجون ومعتقلات حصينة استطاع من فيها أن يهربوا منها بوسيلة ما، بحفر نفق مثلاً... كل ما هنالك أن الأمر يحتاج إلى التأني والوقت.

فردد في يأس: ومن أين لي الوقت؟ ألا تعرفين ما يحدث هنا؟ إنهم يريدون من العالم الذي يأتون به إلى هنا أن ينتج شيئاً، يريدون منه أن يبحث ويخرج عليهم باكتشاف عبقري، أما أن عجز فهل تدرين مصيره؟

- يعيدونه إلى بلاده طبعاً؟

- بل يتخلصون منه، يقتلونه!

- يقتلونه؟ إنني لا أصدق هذا.

- بل تلك هي الحقيقة، لأنه لم يعد ذا نفع لهم بل أصبح عبئاً عليهم. وقد أصبحت أنا هذا العبء المكروه، فإن شعوري بأنني سجين هنا قد شلّ تفكيري فلم أعد قادراً على موالاة البحث، ولم أنتج شيئاً منذ حضرت، وقد ظنوا أن ابتعادي عن زوجتي هو الذي جمد عبقريتي ولذلك أرسلوا يستدعونها، والآن وقد حضرت أنت باعتبارك زوجتي فإنهم لن يصبروا عليّ أكثر من هذا، فإما أن أنتج وإما أن أُقتل.

قالت: والآن فلنعد إلى جناحنا فقد تأخر بنا الوقت. ثم أكملت: نم مطمئناً، فسوف نجد وسيلة للفرار. نعم، حتماً، سوف نهرب!

* * *

الفصل الرابع عشر

في فندق المأمون بمراكش كانت الآنسة جانيت هيذرنجتون مجتمعة بشخصين، أحدهما جيسوب والآخر فرنسي تشع عيناه ذكاء. لكن هيذرنجتون هذه لم تكن تلك التي رأيناها من قبل تتعرف إلى هيلاري في كازابلانكا وفزان وتمضي معها معظم الأوقات، كان لها حقاً نفس القوام ونفس الملامح ونفس هيئة الشعر وتنسيقه، ولكن هيذرنجتون هذه كانت تبدو أصغر سناً وأكثر حيوية، فقد كانت عند لقائها بهيلاري تخفي سماتها الحقيقية.

قال لها جيسوب مستطرداً في الحديث: إذن فهؤلاء هم الوحيدون الذين اتصلوا بها في فزان؟

- كان هناك أيضاً هذه المرأة المدعوة كالفن بيكر التي تعرفت بي وبأوليف بيترتون، وقد حيرني أمرها كثيراً، فقد بدا لي أنها أقحمت نفسها على السيدة بيترتون، بيد أنها أمريكية الجنسية ومن عادة الأمريكيين أن يترددوا أو يتحدثوا إلى كل إنسان بدون سابق معرفة.

وعقب جيسوب: هذا صحيح.

قالت هيذرنجتون: ولكن الغريب الذي يسترعي النظر أنها قد استقلّت نفس الطائرة.

فتساءل جيسوب: أتريدين أن تقولي إن سقوط الطائرة كان حادثاً مدبراً؟ ثم التفت إلى الشخص الفرنسي وسأله: ما رأيك في هذا يا ليبلان؟

رد الفرنسي: هذا محتمل، وإن كان من المستحيل أن نقيم الدليل على هذا، فقد احترقت واحترق كل من فيها.

- وما رأيك في الطيار؟

- ألكادي؟ إنه طيار مغامر لا يسعى إلا وراء المال ولا يؤمن بشيء من المعتقدات السياسية، بل لا شأن له بالسياسة أبداً.

- إذن فلا يمكن أن يكون قد قام بتخريب الطائرة لكي ينتحر ويضحي بنفسه؟

فقال ليبلان: لقد عثرنا بين حطام الطائرة على سبع جثث متفحمة اختفت معالمها.

وعادت الآنسة هيذرنجتون لمتابعة حديثها وقالت: لقد تبادلت السيدة بيترتون بضع كلمات مع أسرة فرنسية كانت تنزل مع أطفالها في نفس الفندق، وكان في الفندق أيضاً سويدي من الأثرياء مع إحدى نجوم السينما، وكذلك السيد أرستيد المليونير اليوناني صاحب آبار البترول.

فقال ليبلاند: هذا الشخص عجيب الشأن، فرغم ملايينه

التي لا تحصى فهو عزوف عن النساء لا يلعب الميسر وليست لديه جياد للسباق، وإنما يحبس نفسه في قصره بإسبانيا ولا يبرحه إلا نادراً، وليس له من هواية إلاّ جمع التحف الصينية.

استطردت جانيت هيذرنجتون: وفيما أعلم لم تتبادل بيترتون حديثاً لا مع الثري السويدي ولا مع المليونير اليوناني.

فسألها جيسوب: والخدم والجرسونات؟

- هذا محتمل دائماً. وقد زارت المدينة القديمة مع دليل من الفندق، وبمجرد عودتها قررت أن تسافر إلى مراكش، فمن المحتمل أن يكون أحد قد اتصل بها أثناء زيارتها للمدينة القديمة.

قال جيسوب: كذلك قررت السيدة كالفن بيكر فجأة أن تصحبها في رحلتها إلى مراكش. ألا يبدو هذا أمراً غريباً وهي التي كانت في مراكش منذ فترة وجيزة؟

ومضى جيسوب يذرع الغرفة وهو غارق في التفكير ثم قال: كلما تمعنت في الأمر ازددت اقتناعاً بأن سقوط الطائرة كان حادثاً مدبراً.

قال ليبلان: من السهل جداً الهبوط بالطائرة إلى الأرض وإحراقها عمداً ثم الادعاء بعد ذلك بأنها قد سقطت واحترقت، ولكن كيف تعلل وجود الجثث بين الحطام؟ هل يمكن أن يرضى ركابها بأن يقبعوا في داخلها ساكنين حتى يحترقوا؟

قال جيسوب: فلنلقِ نظرة على قائمة الركاب.

تناول ليبلان ورقة مطوية من جيبه ونشرها أمامه وانكب عليها الرجلان يتصفحانها: السيدة كالفن بيكر أمريكية، السيدة بيترتون إنجليزية، توركيل إريكسون نرويجي في السابعة والعشرين، وأذكر اسمه فقد سبق له أن ألقى بعض المحاضرات في الجمعية الملكية. واستطرد ليبلان: بعد ذلك راهبة ألمانية، ثم أندرو بيترز الأمريكي الجنسية والدكتور بارون أشهر علماء الجراثيم في العالم.

فقال جيسوب: محال أن يكونوا قد ضحوا بهؤلاء الأفذاذ عمداً. لا بد أن في الأمر سراً، ولكن المشكلة هي تلك الجثث التي وُجدت محترقة بين الحطام.

رن جرس الهاتف وتناول ليبلان السماعة، وأنصت برهة إلى محدثه ثم قال وقد أشرق وجهه وتألقت عيناه: حسناً، حسناً جداً، ابعث بهم إليّ في الحال. ثم تحول إلى جيسوب قائلاً: يبدو يا عزيزي أنك على صواب فيما ذهبت إليه، لقد أمرت رجالي بأن ينتشروا في كل مكان يبحثون ويتحرون وقد عادوا إليّ بمعلومات في غاية الأهمية.

فتساءل جيسوب: حقاً! وما الذي جاؤوا به؟

- مهلاً، مهلاً، سوف ترى.

فُتح الباب بعد لحظات ودخل شخصان يرتدي أحدهما الزي الأوروبي، وكانت ثيابه مغبرّة تدل على أنه قادم لتوه من السفر. وكان برفقته شخص آخر يرتدي العباءة المراكشية الفضفاضة. قال الأوروبي: لقد قمنا بتحريات واسعة ووعدنا

من يدلي إلينا بأي معلومات بمكافأة كبيرة، وقد انتشر صاحبنا هذا (وأشار إلى الرجل العربي) وأفراد أسرته وأصدقاؤه في كل مكان يسألون ويستفسرون، وقد رأيت أن آتي به معي لتسمع بنفسك ما لديه من معلومات.

التفت ليبلان إلى العربي قائلاً: هيا، هات ما عندك.

فأخرج الشخص من طيات عباءته لؤلؤة كبيرة يضرب لونها إلى القرمزي وقال: إنها شبيهة تماماً باللؤلؤة التي عرضتموها عليّ وعلى رجالي، لقد عثرنا عليها.

تناولها منه جيسوب وقارنها بلؤلؤة أخرى أخرجها من جيبه، كانتا متماثلتين تماماً، ثم أخذ عدسة مكبرة وفحص اللؤلؤتين بدقة وغمغم يقول: نعم، العلامة ظاهرة. إنها فتاة رائعة، رائعة! لقد نفذت تعليماتي، يا لها من فتاة!

في خلال ذلك كان ليبلان منهمكاً في استجواب الرجل العربي، فلما فرغ منه تحول إلى جيسوب قائلاً: هذه اللؤلؤة يا زميلي العزيز وجدت على مسافة نصف ميل من حطام الطائرة، وصاحبتها ليست قطعاً إحدى الجثث المتفحمة التي وجدت بين الحطام.

قال ليبلان وهو يتصفح قائمة ركاب الطائرة مرة أخرى: أوليف بيترتون والدكتور بارون، هذان الاثنان على الأقل ذاهبان حتماً إلى حيث يراد لهما بأن يذهبا. أما الأمريكية كالفن بيكر فيمكننا أن نخرجها من حسابنا، وتوركيل إيريكسون له أبحاث عرضت على الجمعية الملكية العلمية، والأمريكي

بيترز كيميائي طبقاً لما ورد في جواز سفره، والراهبة الألمانية هيلدا يمكن أن تكون عالمة متنكرة في هذا الزي. الواقع أن الجماعة كلها من الأخصائيين، فهل جمعوهم معاً في طائرة واحدة كي يحرقوها ويقضوا عليهم؟ هذا طبعاً فرض مستبعد، أخرجوهم طبعاً من الطائرة ثم أحرقوها، فمن أين جاؤوا بالجثث التي وجدت بين الحطام؟

قال جيسوب: فلنطرح هذه القطة الآن جانباً، فهي ليس بذي أهمية. المهم أننا عرفنا أن ركاب الطائرة لم يحترقوا وإنما بدؤوا رحلة جديدة حيث عثرنا على الحطام، فما هي الخطوة التالية؟ هل نزور موقع الحادث؟

* * *

بدأت حملة بحث دقيقة على طول الطريق، أسئلة في كل خان وكل محطة بنزين، وأسئلة في مختلف القرى، وأخيراً أسفر البحث عن شيء.

قال ليبلان: انظر يا صديقي، لقد فتشوا المراحيض كما أمرت فعثروا على هذه اللؤلؤة في خان عبد الله ملصقة بالجدار بقطعة من اللبان، وقد استجوبناه وأفراد أسرته فأنكروا كل شيء في البداية، ثم اعترفوا وقالوا إن ستة أشخاص في سيارة للرحلات السياحية نزلوا بالخان، وذكروا أنهم بعثة ألمانية للبحث والتنقيب عن الآثار وطلبوا منهم أن يكتموا الأمر لأنهم يقومون بالعمل خفية دون تصريح من الحكومة ونقدوهم من المال قدراً كبيراً. وفي قرية الكيف عثر بعض الغلمان على

لؤلؤتين أخريين، وبذلك عرفنا اتجاه السيارة.

وفي الصباح التالي جاء رجال ليبلان باكتشاف جديد، لقد عثر العرب على ثلاث لآلئ صُفّت على شكل مثلث ولصقت فوق قطعة من اللبان. قال جيسوب: اللآلئ المثلثة الشكل معناها أن الطائرة هي وسيلة الانتقال في المرحلة القادمة من الرحلة.

قال ليبلان: أنت على صواب يا صديقي، فقد عثروا على هذه اللآلئ في مطار حربي مهجور كان يستعمل خلال الحرب. ثم أردف: والآن فتلك هي المشكلة، بل أعقد المشاكل... طائرة مجهولة تتجه إلى مكان مجهول.

وتنهد قائلاً: وعند هذا تتوقف أبحاثنا ويضيع منا الأثر.

* * *

الفصل الخامس عشر

أقبلت الآنسة جينسون بعينيها الذابلتين تتألقان تحت نظارتها العتيقة الطراز ذات الزجاج وقالت تخاطب هيلاري: لدينا اجتماع هذا المساء سيخطب فيه المدير نفسه.

قال بيترز معقباً: حسناً، فقد كنت أتمنى أن ألقي نظرة على هذا المدير الخفي.

فرمته السيدة جينسون بنظرة لوم وعتاب، ثم استدارت منصرفة.

قال بيترز: يبدو لي أنها تعبده كما كانوا يعبدون هتلر.

وقالت هيلاري: وهذا ما تراءى لي، إنها فاشيستية متحمسة.

وقال بيترز مستطرداً: حين غادرت الولايات المتحدة كنت ممتلئاً حماسة وشباباً أتوق إلى دنيا تسودها الأخوة والسلام، لكن لو توقعت أنني سألقي بنفسي بين براثن هذا الديكتاتور لما تركت وطني.

فهتفت هيلاري وقد تضرج وجهها احمراراً: لكم يسعدني

أن سمعتك تقول هذا، وكم يسعدني أن التقيت بك، فأنت رجل ظريف وبسيط.

فرد ضاحكاً: يبدو لي أنك قد ضقت بمعاشرة العباقرة.

- صحيح، ثم إنك قد تغيرت كثيراً في الأيام الأخيرة، فلازمك شعور الكره والمرارة.

- أنت مخطئة بهذا، فهنا في أعماقي لا زال الحقد كامناً يتأجج ويتلظى. نعم يا أوليف، هناك أشياء يجب أن يبغضها الإنسان.

* * *

بعد العشاء انعقد الاجتماع الذي أشارت إليه السيدة جينسون في قاعة المحاضرات وحضره جميع أعضاء البحث العلمي من علماء ومساعدين وكيماويين وغيرهم، واتخذت هيلاري مجلسها بجانب زوجها المزعوم بيترتون وهي أشد ما تكون لهفة إلى مشاهدة الرجل الذي يدير هذا المركز ويفرض عليه قيوده وأغلاله، وقد سألت عنه زوجها فكانت إجابته متسمة بالغموض. قال: لقد رأيته مرتين فقط. إنه شخص عظيم ذو شخصية طاغية جبارة يستحوذ على عقلك ويخضعك لسلطانه بمجرد أن يتكلم.

وأخيراً ظهر الرجل على منصة الخطابة فوقف الحضور جميعاً تحية له. كان رجلاً متوسط العمر متين البنية، لا بالطويل ولا بالقصير، يتميز بعينين تشعان ذكاء متألقاً وله نظرات نفاذة

كأنما يسري فيها تيار كهربائي قوي. وحين وقف يتكلم تعلقت به العيون في انتباه شديد. استهل خطابه بأن قال: دعوني أولاً أرحب بزملائنا الجدد الذين انضموا إلينا في الأيام الأخيرة... ثم شرع بعدئذٍ يتحدث عن أهداف المنظمة وأمانيها.

وحاولت هيلاري فيما بعد أن تستعيد في ذهنها ما سمعته فاستعصى عليها الأمر وخيّل إليها أنه لم يتفوه إلا بكلمات عادية مرسلة جوفاء، وإن كان الإنصات إليه أمراً مختلفاً جداً، فحين يتكلم تحس بسحره يطغى عليك فيأخذك ويحتويك، لكنها وجدت كلماته مجرد لغو لا يقدم ولا يؤخر. وتذكرت هيلاري عندئذٍ ما حدّثها به صديق لها عاش في ألمانيا أثناء الحرب وكيف كان الشعب الألماني يجن ويشتعل حين يستمع إلى هتلر، وكان خطيب الليلة أيضاً من ذاك الطراز العجيب. سحر الحاضرين فجعلوا يتابعون كلماته مشدوهين كأنما يهيمون في السماوات.

تكلم الخطيب عن الشباب وقال إن مستقبل البشرية منوط بهم، وقال إن العقول هي القوة، العقل الكيميائي والعالم الطبيعي والمهندس. قال: من بطون المعامل أيها الأصدقاء تنبثق القوة التي يمكن أن تدمر العالم، وبهذه القوة التي في أيدينا يمكن أن نقول للدنيا: "إما التسليم وإما الموت"... هذه القوة المدمرة الهائلة لا يصح أبداً أن تكون في يد دولة واحدة، وإنما يجب أن تتقاسمها جميع الدول وأن تكون ملكاً للجميع. لقد جئتم أيها الأصدقاء من جميع البلاد وجئتم بأعظم ما وصل إليه العلم من اكتشافات، كما جئتم بالشباب، فليس بينكم من تجاوز الأربعين. فهنا سوف نقيم دولة الشباب

لكي تحكم العالم، سنقول للدنيا: ها قد جاء الشباب ليحكم ويسيطر أيها الرأسماليون، يا رجال الصناعة ويا قادة الجيوش، تخلوا عن مقاعدكم فالشباب قد جاء ليحكم!

وعلى هذا المنوال جرت الخطبة كلها، كلمات رنانة مدوية خلبت ألباب السامعين وسحرتهم، فما فرغ منها حتى هبوا جميعاً وقوفاً يصفقون ويهللون.

* * *

أخذ آندي بيترز بذراع هيلاري قائلاً: هيا بنا إلى حديقة السطح لأنني بحاجة إلى الهواء النقي. ثم قال لها وهما يتمشيان في الحديقة: هيا انفضي عنك سحر الرجل فقد كاد يفسد عقولنا.

- الحق أن كلماته سحرتني، وإن كانت كلها عبارات جوفاء فارغة.

استطرد بيترز يقول: بعد أن استمعت إلى هذا الخطاب ازددت عزماً على أن أخرج من هنا.

- لكن كيف؟ كيف؟ إني أراه مسدوداً لا سبيل إلى ثغرة فيه!

- هل حسبتِني خاملاً متوكلاً، أنا ماضٍ في تدبير خطتي.

- هل ستوفق؟

- هذا ما أتوقعه.

- هل تنوي أن تأخذني معك؟

تأملها لحظة ثم قال: وهل يخامرك شك في هذا؟

فسألته: وبيترتون طبعاً؟

فتجهم وجهه وقال: صدقيني يا أوليف فيما أقول، إن من الأسلم لبيترتون أن يبقى هنا.

فنظرت إليه باستغراب وقالت: من الأسلم أن يبقى هنا! ماذا تقصد؟ أتعني أن عقله قد اختبل وأنه أصبح مجنوناً؟

- بل هو سليم العقل مثلي ومثلك تماماً.

- إذن فلماذا يبقى هنا؟ لعلك تعتقد أنه خان وطنه وباع أسراره العلمية إلى المنظمة؟ ألا تعلم أنه متلهف للهرب؟

قال بيترز في أسى: لقد حذرتك وحسبي هذا. ثم أردف: بالله ما الذي يجعلك تهتمين بهذا الرجل؟

وهمت بأن تصرخ فيه: "لكنني لا أهتم به، أنت الوحيد الذي أهتم به لأنني... لأنني أحبك"! ولكنها في اللحظة الأخيرة أمسكت بالكلمات التي كادت أن تنطقها واكتفت بأن نظرت إليه نظرة تفيض أسى ومرارة.

* * *

قال لها بيترتون عندما عادت إلى جناحها: هل قضيت وقتاً ممتعاً مع صديقك الأمريكي؟

فتضرج وجهها احمراراً ورددت: أتراك تغار منه؟ أنسيت أنه كان رفيقي في السفر؟

فضحك بيترتون وقال: لا ألومك على أية حال فهو وسيم جذاب. واستطرد يقول: وأنت أيضاً امرأة جميلة، لم أفطن إلى ذلك من قبل لأنني مشتت العقل ولا أستطيع أن أركز تفكيري على شيء. هذا المكان يخنقني ويحطم أعصابي.

- ولكن الآخرين يعملون ويفكرون فلمَ لا تكون مثلهم.

- لأنهم جماعة من الحمقى ماتت مشاعرهم.

- لكن لا شك أن فيهم نفراً مرهفي الإحساس. لمَ لا تتخير من بينهم صديقاً فتجد في صحبته ما يرفه عنك؟

- إن مارشيسون هو صديقي الوحيد.

فقالت في دهشة واستنكار: حقاً؟ ولكنني لا أرتاح لهذا الرجل، إنه يخيفني.

- توركيل يخيفك؟ إنه رجل وديع مسالم كأنه طفل.

فعادت تقول في عناد: مهما يكن فإنه يخيفني، ولكم أتمنى أن تقطع صلتك به.

- لكن لماذا؟ ما الذي تأخذينه عليه؟ لماذا تكرهينه؟ ما الذي يخيفك منه؟

- لا أدري، مجرد هاجس في نفسي... مجرد إلهام.

* * *

الفصل السادس عشر

قال المفتش ليبلان: لاشك أنهم غادروا أفريقيا بالطائرة.

فرد جيسوب: ليس الأمر مؤكداً.

- لكن الاحتمالات كلها تشير إلى هذا، ونحن جميعاً نعرف الجهة التي يقصدونها.

- هذا أيضاً أمر غير مؤكد. فإذا كانوا قاصدين إلى هذه الجهة فما الذي يجعلهم يتكبدون مشقة السفر أولاً إلى أفريقيا وبعد ذلك يسافرون إلى تلك الجهة؟ من السهل عليهم أن يسافروا إليها رأساً من أوروبا.

قال ليبلان: هذا صحيح، ولكن لعلهم فعلوا ذلك ليضللوا كل من يحاول أن يتعقب أثرهم، إذ لن يخطر لأحد أن أفريقيا هي مقر الاجتماع.

بيد أن جيسوب ظل متشبثاً برأيه فقال: أعتقد أن في الأمر سراً خفياً، فالمطار صغير الحجم لا يتسع إلا لطائرة صغيرة، وإذا عبروا بها البحر الأبيض استهدفوا لمخاطر لا داعي لأن يعرضوا أنفسهم لها، وفضلاً عن ذلك فلا بد أن يهبطوا في

أكثر من مطار ليتزودوا بالوقود، وفي هذا ما يسترعي الأنظار إليهم فينكشف أمرهم. كلا يا عزيزي ليبلان، أعتقد أنهم لم يبرحوا أفريقيا.

قال ليبلان: ولكننا لم ندع مكاناً إلا فتشناه.

قال جيسوب: لقد افترضنا أنهم سيعبرون البحر الأبيض، ولذلك اتجهت أبحاثنا ناحية الشمال، فلم لا نعكس الأمر ونمد بحثنا إلى الجنوب؟

- ولكن ما عسى تكون وجهتهم؟ ليس في الجنوب إلا جبال شاهقة تمتد وراءها صحراء شاسعة بلا حدود.

فغمغم جيسوب متأملاً: من يدري، من يدري؟

* * *

قال الرجل الأسمر الوجه الذي ينحدر من قبائل البربر: لقد أقسمت يا سيدي أن تفي بوعدك.

فرد عليه أندرو بيترز: طبعاً سأفي بوعدي.

وهل ستكون مكافأتي محطة بنزين في أمريكا، في شيكاغو؟ هل أنت متأكد؟

- أنا متأكد يا محمد طالما استطعت أن تخرجنا من هنا.

- إن النجاح مرهون بإرادة الله.

- إذن دعنا نأمل أن تكون إرادة الله قد قضت لك بمحطة

بنزين في شيكاغو، ولكن لماذا محطة بنزين بالذات؟

- لأن شقيق زوجتي مقيم في أمريكا ولديه فيها محطة بنزين، ولا أريد أن أكون دونه مقاماً.

قال بيترز: أنت تدرك طبعاً أنهم إن عثروا علينا فربما...

قال محمد مقاطعاً: إن عثروا عليكم فالموت جزائي، ولكنهم لن يمسوكم بسوء لأنهم في حاجة إليكم. وتابع محمد: ومع ذلك فأنا لا أخاف الموت. إن الموت مكتوب على البشر يأتيهم من حيث لا يدركون، الموت هو قضاء الله.

فسأله بيترز: وهل وعيت تماماً ما أريده منك؟

- نعم يا سيدي، عليّ أن أصعد بك إلى السطح بعد هبوط الظلام وأن آتيك بثياب مراكشية مشابهة تماماً للثياب التي أرتديها أنا والخدم.

- تماماً، وإذا نجحنا فلك محطة البنزين الموعودة.

* * *

في ذلك المساء أقيمت حفلة ساهرة استمرت ساعات متصلة، ورقص أندرو بيترز مع السيدة جينسون، وبدا وهو يضمها إلى صدره وكأنه يهمس في أذنها بكلمات ناعمة، فقد كانت نظراتها تشع أحلاماً من وراء زجاج نظاراتها المزدوجة السميكة، وفي دورانهما حول القاعة مرا بهيلاري فغمز بعينه خفية عن زميلته، وأشاحت هيلاري بنظرها بعيداً وقد زمت عينيها استياء.

وقع بصر هيلاري على توم بيترتون وقد انتحى بتوركيل إيريكسون جانباً من القاعة وهما منهمكان في الحديث. ثم سمعت هيلاري صوتاً إلى جانبها يقول: أتسمحين لي بالجلوس معك يا أوليف؟

كان مارشيسون هو الذي يتوجه إليها بهذا الكلام. وأجابت: يسعدني هذا.

وابتسمت هيلاري فتطلع إليها وقال مبتسماً: ما أجمل هذا الفستان!

- يسرني أنه قد أعجبك.

- أنت اشتريته طبعاً من قسم الملابس هنا.

كان ذلك سؤالاً سخيفاً لا داعي له، إذ من أين لها به إلا أن يكون من قسم الملابس هنا؟! واستطرد مارشيسون بعد لحظات: إنهم يحسنون معاملتنا هنا. وقد كنت أقول لبيانكا بالأمس أن كل شيء متوفر هنا، الطعام جيد وفير والأجر ضخم مجزٍ ولسنا مطالبين بشيء من الضرائب، إننا في الحق نعيش هنا حياة رائعة.

فسألته هيلاري: وهل تراها بيانكا حياة رائعة؟

- قال في شيء من التردد: لقد خامرها شيء من الضيق في البداية، ولكنها ما لبثت أن ألفت الحياة هنا وأخذت تشغل فراغها بالنشاط الاجتماعي، وكانت تتمنى لو أنك تشاركينها نشاطها.

- أنا امرأة منطوية على نفسي ولا يستهويني النشاط الاجتماعي.

- هذا عجيب، فالمرأة العصرية مولعة بأن تشغل نفسها بأي شيء! ثم أردف: أنا لا أجهل أن النساء اللاتي آثرن القدوم إلى هذا المكان من مثيلاتك أنت وبيانكا يقدمن دون شك على تضحية عظيمة، فأنت مثلاً لست من العلماء ولا عمل لديك هنا، وزوجك منشغل عنك طوال الوقت غارق في معمله بين أنابيب الاختبار، وقد قلت لبيانكا إن أوليف قد تضيق في البداية بهذه الحياة ولكنها لن تلبث أن تألفها وتعتاد عليها.

توقف حوارهما حين ظهر الدكتور نيلسون في صدر القاعة ولوح بيده، فسكتت الموسيقى وصمت الحضور، وقال الدكتور نيلسون يخاطب الحاضرين: أيها الأصدقاء والزملاء، ستضطرون غداً إلى أن تلزموا جناح الطوارئ ولا تخرجوا منه، فهناك بعثة قادمة لزيارة المستشفى وليس لهم طبعاً أن يشاهدوا أحداً منكم، ولكن الأمر لن يطول أكثر من أربع وعشرين ساعة، فبمجرد انصرافهم تعودون إلى سابق حريتكم وتجولون في أرجاء المكان كما تشاؤون.

وعلى إثر هذه الكلمات انسحب من القاعة وعادت الموسيقى إلى عزفها والحاضرون يرقصون، ومال بيترز إلى هيلاري يقول: إذن فغداً سنحبس في سجن خاص، كأنما لا يكفينا هذا السجن الذي نعيش فيه.

* * *

في صباح اليوم التالي دوى جرس الإنذار فهرعوا جميعاً إلى قاعة المحاضرات، ومن هناك تولت الآنسة جينسون إرشادهم إلى جناح الطوارئ. مشت بهم في دهاليز متعرجة لا تنتهي، وكان بيترز متأبطاً ذراع هيلاري وقد أخفى في يده بوصلة صغيرة. قال لها: هذه البوصلة تهدينا إلى الطريق فيما بعد حين تدعو الحاجة.

وانتهوا إلى دهليز طويل توقفوا فيه، وضغطت الآنسة جينسون على زر في الجدار فدار الجدار حول نفسه وانكشف عن فجوة كبيرة نفذوا من خلالها إلى جناح الطوارئ، وأخرج بيترز علبة سجائر مصنوعة من غلاف قنبلة وتناول منها سيجارة، وقبل أن يشعلها ارتفع صوت الدكتور نيلسون قائلاً: التدخين ممنوع أيها الأصدقاء.

رد بيترز معتذراً: آسف. وأعاد السيجارة إلى علبته، ولكنه لم يعد العلبة إلى جيبه بل استبقاها في يده. ودخلوا إلى قاعة فسيحة صفت الأسرّة في ركنين منها، ركن للرجال وآخر للنساء، وفي ركن ثالث وضعت مائدة كبيرة وحولها المقاعد، كما كان هناك مطعم كبير في الركن الرابع، ووسط القاعة شغلته المقاعد والطاولات.

قالت جينسون تخاطب الحاضرين: ستجدون هنا كل ما تحتاجون إليه من شراب وطعام، ولكن المقام لن يطول بكم في هذا المكان، فما أن تنصرف البعثة حتى يباح لكم الخروج.

* * *

كانت القاعة بلا نوافذ ولكنها كانت مزودة بأجهزة التكييف، كما كانت بها رفوف تكدست فوقها الكتب لمن يحبون القراءة.

مال بيترز إلى هيلاري هامساً: الجدران صماء بلا نوافذ حتى لا يفطن أحد في الخارج إلى أن في هذا الموقع قاعة فيها علماء من الذين اختفوا من كل أرجاء الدنيا.

انقضى النهار في هدوء وسلام، وأمضى الحاضرون وقتهم في القراءة أو الكتابة أو لعب الورق أو الحديث، وأخيراً حانت ساعة النوم، فنهضت هيلاري واقفة وحيّت من معها معتذرة بأنها تريد أن تأوي إلى فراشها. على أنها ما مشت عبر القاعة بضع خطوات حتى لمست يدٌ ذراعها، فاستدارت ورأت إزاءها عربياً أسمر الوجه يرتدي تلك الثياب المزركشة التي يلبسها الخدم.

قال لها الرجل: أرجو أن تأتي معي.

فسألته: آتي معك؟ ولكن إلى أين؟

فلم يزد على أن قال: أرجو أن تتبعيني يا سيدتي.

تسمرت مكانها برهة مترددة، وللمرة الثانية أحست بيد العربي على ذراعها وهو يقول مكرراً: أرجو أن تتبعيني يا سيدتي.

ورأت أن لا مناص من الإذعان فمشت وراء الرجل بضع خطوات، ثم استدارت تتطلع خلفها فرأت بيترز يتابعها بأنظاره وكأنما يريد أن يلحق بها. مشى بها الرجل إلى باب سري في

ركن القاعة وفتحه بمفتاح صغير في جيبه. ثم خرج بها إلى دهليز قصير وفتح باباً آخر انكشف عن مصعد مخبأ في الجدار ودعاها إلى الدخول.

قالت له هيلاري والمصعد يشق بهما الطريق: ولكن إلى أين تذهب بي؟

- إلى السيد يا سيدتي، وهذا شرف عظيم.

- أتقصد المدير؟

- بل السيد نفسه يا سيدتي.

توقف المصعد وخرجت منه هيلاري في أعقاب الدليل، فاجتاز بها ردهة فرشت بالسجاد، ثم فتح باباً في صدر الردهة ودعاها إلى الدخول. كانت الغرفة مؤثثة على الطراز الشرقي، صفت بها الأرائك المنقوشة ووضعت فوقها الوسائد، وهناك على أريكة في صدر القاعة كان رجل جالساً يدخن في هدوء.

وتطلعت إلى وجه الرجل ثم حملقت عينيها دهشة، فما كان هذا الرجل إلا المليونير اليوناني: السيد أريستيد!

* * *

الفصل السابع عشر

قال السيد أريستيد: اجلسي يا سيدتي العزيزة.

وأومأ بيده إلى إحدى الأرائك فمشت إليها هيلاري في صمت مأخوذة مشدوهة كأنها في حلم واستوت جالسة. وأطلق المليونير ضحكة خافتة مبتورة وقال: أنت مندهشة طبعاً، فليس هذا ما كنت تتوقعين.

ردت هيلاري: كلا بالطبع، فلم يخطر لي أبداً... لم أكن أتصور أن... وأمسكت لا تتم ما كاد ينطق به لسانها. إذن، فالسيد أريستيد هو منشئ هذا المركز العلمي، هو صاحب كل تلك التدابير ومن ملايينه المكدسة ينفق على الأبحاث الجارية.

قالت هيلاري: إذن فكل هذا ملك لك؟

- نعم يا سيدتي

- والمدير؟ ما شأنه؟

- مجرد موظف يتولى إدارة العمل وإلقاء المحاضرات واستقبال البعثات التي تزور المستشفى.

فلاذت بالصمت وغرقت في خواطرها، وقال لها: لديك قهوة تركية رائعة أو غيرها من المشروبات إن شئت. ثم استطرد: أنا رجل محب للخير والإحسان، كما أنني غني جداً كما تعرفين. إنني من كبار الأغنياء في العالم، بل لعلي أغنى رجل في الدنيا، والثراء يفرض على صاحبه التزامات معينة حيال الإنسانية، ولذلك أقمت هذه المستعمرة للمجذومين وزودتها بأعظم الأطباء والعلماء لدراسة الجذام واكتشاف علاج ناجح له، وإن كانت هناك بعض حالات استعصت على الشفاء. وليس هذا فقط بل لقد أنشأت مركزاً لأبحاث الجدري ومركزاً ثالثاً لأبحاث السرطان.

نفث المليونير بضعة أنفاس من سيجارته ثم تابع: الجذام مرض رهيب، وفيما مضى كان المجذومون يطردون إلى خارج المدن حيث يتركون في العراء حتى توافيهم المنية، أما اليوم فهنا في مركز الأبحاث الذي أنشأته يعالجون ويشفون. وسكت هنيهة ثم استطرد: لكن ليست المراكز العلمية هي الهدف الذي أرمي إليه. إن مستعمرة الجذام ليست إلا ستاراً أخفي وراءه مجمع العلماء.

فتساءلت هيلاري: مجمع العلماء؟

- نعم، إنني أجمع العلماء هنا في ركن خفي من المستعمرة ليقوموا بأبحاث سرية من نوع آخر.

- ليخترعوا لك أجهزة التدمير، لكن لماذا؟ لماذا تريد أن تدمر الدنيا يا سيد أريستيد؟

- أنا أريد أن أدمر الدنيا يا عزيزتي؟! أنت بهذا تخطئين في حقي يا سيدتي، إنني رجل محسن محب للخير، ومع ذلك فأنا في نفس الوقت رجل أعمال.

فنظرت إليه باستغراب قائلة: رجل أعمال؟ ماذا تعني؟

- حين تزيد الثروة عن حدها تصبح شيئاً مزعجاً يحطم الأعصاب، فيسعى المرء إلى أشياء يرفه بها عن نفسه. وقد اتجهت إلى جمع التحف واللوحات حتى ضقت ذرعاً بها، ثم هويت جمع طوابع البريد فكانت مجموعتي أشهر وأعظم مجموعة في العالم، أما اليوم فإنني أجمع العقول.

فرددت وراءه: العقول؟!

- نعم، وهي أمتع هواية مارستها. إنني أجمع عقول العباقرة، ورويداً رويداً ستكون لدي في هذا المركز أعظم العقول العلمية في الدنيا. لكنني لا أنتقي إلا الشبان وحدهم، وسيحل يوم ينتبه فيه العالم على أنه أصبح خالياً من العلماء ولم يعد لديه منهم إلا المسنون والعجائز، وعندئذٍ يتجه العالم إليّ ويتوسل أن أمده بمن لديّ من علماء شبان، ولما كنت رجل أعمال كما قلت لك فإنني لن أتردد في أن أبيع علمائي للدول.

- تبيع لهم علماءك؟ أهم سلعة في نظرك؟

- ولمَ لا يكونون؟

- إذن فهذا كله مشروع تجاري بحت لا شأن له بالسياسة.

فقال السيد أريستيد: السياسة؟ أنا رجل أمقت السياسة والسياسيين.

- ألا تريد أن تسيطر على العالم وتحكمه؟

- وماذا يعنيني من العالم حتى أشغل نفسي به؟ أنا لا أريد أن أكون إلهاً أدير العالم. إنني رجل مؤمن ومجرد تاجر، والعلماء هم تجارتي، إنهم السلعة التي أتعامل بها.

- إذن فما هذا الذي سمعته عن الشباب وحكم الشباب وأن المستقبل لهم؟

- مجرد كلمات جوفاء تخلب ألبابهم وتستهويهم، فهذه هي النغمة التي يحبها الشباب.

- لقد ظننت أنك تريد منهم أن يخترعوا لك آلات الدمار والهلاك حتى تهدد الدول بما لديك وتتولى حكم الدنيا.

فاستغرق السيد أريستيد في الضحك وقال: هذا شيء لم يخطر لي ببال.

- لكن كيف استطعت أن تجمع كل هؤلاء العلماء هنا؟

- اشتريتهم كما يشتري الإنسان سلعة معروضة في السوق. اشتريتهم بالمال والأحلام، فمعظم الشبان يعيشون في الأوهام والأحلام، وما عليّ إلا أن أجاريهم في أوهامهم فيتهافتون عليّ وأنقدهم أجراً ضخماً.

- إذن فهذا تعليل ما لاحظته عليهم من أنهم يعتنقون عقائد

مختلفة ولا تربطهم عقيدة سياسية واحدة، فهذا الأمريكي بيترز يساري متطرف، وإيريكسون رجل الأحلام والمثل العليا والإنسان المتفوق، أما هيلدا نيدهايم ففاشيستية متحمسة تملك قلباً من الصخر مجرداً من المشاعر، أما الدكتور بارون...

فقاطعها أريستيد: الدكتور بارون رجل جشع لا يعبد إلا المال، وقد نقدته ما يسد جشعه. ثم أردف وهو يضحك: أنت امرأة ذكية يا سيدتي، فرغم قصر المدة التي قضيتها مع هؤلاء العلماء فقد استطعت أن تنفذي إلى بواطن نفوسهم. نعم، أنت امرأة شديدة الذكاء، ولعلك لا تعلمين أنني إنما ذهبت إلى فزان لأراقبك عن كثب.

- لكن لماذا؟ وما الذي دفعك إلى الاهتمام بأمري؟

- إن العباقرة الذين يضمهم هذا المركز أفذاذ في أبحاثهم لكنهم غير اجتماعيين وصحبتهم لا تلذ لأحد ونساءهم غبيات يثرن الضجر والملل، وأنت الوحيدة الذكية بينهن. أنا لا أحبذ عادة وجود الزوجات هنا إلا إذا دعت الضرورة، كأن أرى الزوج عاجزاً عن الاكتشافات والاختراعات وتركيز الذهن لفرط قلقه على زوجته التي تركها خلفه. ولقد كان هذا شأن زوجك منذ حل بهذا المكان، ولهذا أتيت بك. لقد خاب ظني في زوجك يا سيدتي العزيزة.

قالت هيلاري: لكن لا بد أن يحدث هذا من حين لآخر لأن العالم لا يمكن أن يبتكر ويخلق إلا إذا شعر بأنه حر طليق، وهم جميعاً دون شك يشعرون أنهم يعيشون سجناء خلف الأسوار والقضبان، ولهذا لا بد أن يتمردوا.

- لكن العصفور لن يثور إذا زودناه في قفصه بكل ما يحتاج إليه: الطعام والماء ورفيقته. إنه لا يلبث أن ينسى الدنيا الخارجية، وسينسى أنه كان حراً في يوم من الأيام. إن الحرية مجرد عادة!

فردت بصوت مرتعد: أنت تخيفني بهذه الآراء! ثم أردفت: لكن العالم الذي ستبيعه قد يرفض أن يعمل في خدمة سيده الجديد وقد يتمرد ويسعى إلى أن يكون حراً، فالحرية ليست عادة كما تزعم أنت بل هي غريزة كامنة في النفس، حتى الطفل الصغير يسعى إلى الحرية ويتمرد على أوامر أمه.

- أما سمعت أبداً يا عزيزتي عن عملية غسل المخ؟ إذا شعرنا بأن الرجل بدأ يثور ويتمرد فلا أسهل من أن نجري له عملية غسل مخ، فينقاد مطيعاً كالحمل المطيع. هناك عقارات يحقن بها الإنسان فتؤدي إلى هذه النتيجة.

- لكن ألا تخشى أن يؤثر هذا على قدرته على التفكير وأن يفقد عبقريته أو بعضها على الأقل؟

- إن غسل المخ لا يؤثر إطلاقاً على القدرة على التفكير، كل ما هنالك أنه يجعل المرء وديعاً ومسالماً مستكيناً.

فهتفت هيلاري: هذا فظيع! هذا رهيب!

- لكنه مفيد، إنه يجعل الرجل بلا هموم أو قلق.

فهزت رأسها في عناد وتشبث وقالت: لا زلت أعتقد أن عملية غسل المخ تشل القدرة على التفكير.

- نحن على أية حال ماضون بإجراء التجارب، وقد وصلنا إلى نتائج مبشرة.

- وهل تجرون التجارب على الحيوانات؟

فضحك وقال: حيوانات؟ نحن نجريها على البشر!

فهتفت هيلاري باستنكار: البشر؟!

- طبعاً، فبعض العلماء الذين حضروا هنا أثبتوا أنهم فاشلون ولم يكتشفوا جديداً، فأي نفع لهم عندنا؟

- لكن أمن حقكم أن تتخذوهم حقلاً للتجارب؟

- ولمَ لا؟ لصالح الإنسانية. نحن هنا نضحي بالفرد من أجل المجموع.

نظرت إليه هيلاري في ذهول... هذا الرجل لا بد أن يكون مخبول العقل.

قال لها: لكن ما الذي يعنيك أنت من الأمر كله؟ إن الذي يهمك هو زوجك دون الآخرين. أتخشين أن أجري عليه تجاربي؟

- هذا ما أتوقعه ما دمت تجده غير منتج. ثم أردفت: أتوسل إليك أن تطلق سراحه وتعيده إلى بلاده.

فضحك أريستيد في سخرية وقال: أعيده لكي يفشي سري ويتحدث بما رأى هنا؟

- سأطلب إليه أن يقسم على الكتمان، وإذا أقسم فسوف يفي.

فاشتدت ضحكته سخرية وقال: إنه رجل لا يفي بالعهد، فقد أفشى إليّ بكل ما يعرف من أسرار علمية لقاء ما نقدته من مال. ثم استطرد: ومع ذلك فأنا على استعداد لأن أطلق سراحه ولكن على شرط.

- وما يكون هذا الشرط؟

- أن تبقي أنتِ هنا رهينة لدينا حتى لا يفشي أسرارنا خوفاً عليك مما قد يصيبك، فهل أنتِ على استعداد لقبول هذه التضحية؟

وهمت بأن تقول له إن بيترتون بالنسبة إليها رجل غريب وإنه ليس زوجها، لكنها بدلاً من ذلك قالت: نعم، أنا على استعداد للبقاء رهينة كما تقول.

فقال أريستيد: وفي هذا ما يسعدني، فأنت امرأة ذكية وأنا أحب الذكيات من النساء. وسرح ببصره هنيهة ثم قال في شرود: ثم إن لك شعراً أحمر، وقد كانت زوجتي ذات شعر أحمر، فما رأيتك حتى أهجت في نفسي ذكرياتي التي ماتت. نعم، إنني أشعر لأول مرة منذ سنوات طويلة بأن جذوة الحب بدأت تشتعل في قلبي من جديد... وسوف أجعلك أسعد النساء.

فتفرست فيه لحظة وهتفت: كلا، كلا، لا أريد أن أبقى،

أريد أن أرحل عن هذا المكان. أتوسل إليك أن تطلق سراحي.

فرماها أريستيد بنظرة طويلة ثم قال: بل ستبقين هنا إلى الأبد. نعم، أنت وزوجك لن ترحلا!

* * *

الفصل الثامن عشر

أفاقت هيلاري في جوف الليل على هدير طائرة يشق سكون الليل، وارتكزت على مرفقها تستمع إلى الأزيز، ثم نادت توم الذي كان مستغرقاً في نومه على سرير آخر بالقرب منها وقالت له بعدما أفاق: توم، أتسمع أزيز الطائرة؟ إنها تطير منخفضة فوق البناء.

فقال وما زال النعاس يغالبه: إن الطائرات لا تفتأ تروح وتغدو في هذه المنطقة.

- وما يدريني أنها طائرة جاءت لكي... ثم بترت جملتها ولاذت بالصمت.

ولم يسألها توم عما كانت بسبيل التفوه به إذ ما لبث أن غرق في النوم من جديد. ولبثت هيلاري صاحية وهي تستعيد بذهنها دقائق ذلك الحديث الذي جرى بينها وبين أريستيد. لقد هام بها العجوز حباً ولم يتردد في أن يصارحها بالمشاعر التي يجيش بها فؤاده، فهل تستغل هذا الوضع وتلعب بهذه الورقة؟ عندما يجيء في المرة التالية ويدعوها إلى لقائه سوف تستدرجه إلى الحديث عن زوجته ذات الشعر الأحمر. إن

الذي اجتذبه إليها لم يكن جمالاً خلاباً أو قواماً ساحراً، وإنما كان تاجاً من الشعر الأحمر، فهو شخص عزوف عن النساء ولكنه يستعيد فيها ذكريات الشباب التي اندثرت، وهي بشعرها الأحمر تذكره بتلك التي أحبها على عهد الصبا والشباب. فهل تراها تستطيع أن تستغل فيه هذه النزوة لكي تحمله على أن يصحبها معه إلى العالم الخارجي. قالت في نفسها: لا بد أن أخرج من هذا السجن... لا بد أن أجد وسيلة للفرار، فهل يكون أريستيد هو طريق الهرب؟

* * *

قال المفتش ليبلان وقد أشرق وجهه: رسالة؟ ها نحن أخيراً نتلقى رسالة.

كان سكرتيره قد دخل عليه يحمل إليه ورقة مطوية. تناولها منه ليبلان وفضها ومرّت عليها عيناه سريعاً، ثم قال في انفعال: هذا تقرير من أحد الطيارين الذين عهدت إليهم بأن يمسحوا الصحراء في المنطقة المتاخمة لجبل أطلس.

تساءل جيسوب: وما الذي جاء في التقرير؟

أجاب: الرسالة مكتوبة بالشفرة، ويقول فيها إنه عند طيرانه فوق موقع معين في المنطقة الجبلية تلقى إشارة لاسلكية بطريقة المورس وقد كررها مرسلها ثلاث مرات، وهذا نص الإشارة اللاسلكية. وبسط أمام جيسوب ورقة لا تحمل إلا هذه الكلمات: «كوج جذام سيل»، واستطرد المفتش يقول: أما الكلمة الأولى «كوج» فهي كلمة السر التي نعرف بها أن الرسالة

اللاسلكية صادرة من أحد رجالنا وليست مدسوسة علينا، والكلمة الثالثة «سيل» شفرة سرية معناها «لا أعلم شيئاً»، والكلمة الوسطى جذام معناها واضح.

سأل جيسوب: جذام؟ هل لديكم في هذه المنطقة مصحات للجذام؟

فرد الشرطي الفرنسي: لست أدري، ومع ذلك فيمكننا أن نتأكد. وجاء بخريطة نشرها على المكتب وانكب عليها يفحصها، ثم أومأ بإصبعه إلى موضع فيها وقال: هذه هي المنطقة التي كان طيارنا يحوم فوقها. ثم أخذ يقرأ البيانات المدونة بهامش الخريطة وعاد يشير إلى نقطة ملونة باللون الأحمر وقال: هنا، انظر، إنها مستعمرة للجذام.

- من صاحبها؟ من الذي يديرها؟ الحكومة الفرنسية؟

- لا أعلم، سوف نرى، لحظة واحدة.

وغادر غرفته وعاد بعد لحظات يحمل مجلداً ضخماً أخذ يقلب صفحاته حتى استقر على صفحة معينة وقال: هاك ما نبحث عنه. في هذا المكان المهجور من الصحراء مستعمرة للجذام أنشأها وينفق عليها رجل محسن محب للخير من كبار الأغنياء، وهي تضم مركزاً علمياً لأبحاث الجذام والسرطان والجدري، وفي المستعمرة نحو مئتين من المجذومين يشرف على علاجهم أشهر الأطباء، كما يقومون ببحث يهدفون به اكتشاف دواء ناجح للجذام. وهذا المركز العلمي فوق الشبهات.

فقال جيسوب: عظيم، عظيم جداً، وماذا لديك أيضاً من بيانات؟

استطرد ليبلان: ومن حين لآخر تقوم بزيارة هذا المركز العلمي بعثات من كبار الشخصيات ومشاهير الأطباء، فتتفقده وتطلع على ما أحرزه من تقدم علمي، ثم تعود هذه البعثات وهي تردد أعظم الثناء دون أن ترتاب في شيء.

- هذا لأنهم يرون ما يراد لهم أن يشاهدوه، ولكنهم لا يرون ما لا يراد لهم أن يشاهدوه. إنني أشعر بأن هذا المركز العلمي ما هو إلا ستار يهدفون به إلى إخفاء نشاطهم المريب، فلا أصلح من المكان الشرعي المحترم لإخفاء عمل غير مشروع وغير محترم.

قال ليبلان في شيء من التردد: هذا محتمل. في مثل هذا المكان البعيد المهجور الذي يقع في قلب الصحراء يمكن تخبئة العلماء الذين اختفوا مدة أسبوعين أو ثلاثة حتى يواصلوا رحلتهم بعد ذلك إلى محطة الوصول المجهولة.

قال جيسوب: أعتقد أن هذا المركز العلمي هو نفسه محطة الوصول وهو نهاية الرحلة.

فسأل المفتش: وما يحملك على هذا الظن؟

- لأنه لا داعي لإنشاء مستعمرة يحبس فيها المجذومون، فالجذام اليوم مع أساليب العلاج العصرية يمكن أن يعالج في البيت. فيما مضى كانوا يعلقون في رقبة المجذوم جرساً فإذا مشى في الطرقات أرسل الجرس رنيناً فيتنبه الناس ويبتعدون

عن طريق المصاب بهذا الداء، أما اليوم فالأمر يختلف ولا داعي لإنشاء مستعمرة لعزل المصابين فيها، ولذلك أعتقد أن لهذا العمل الإنساني المتسم بالخير هدفاً آخر. إن هذه المستعمرة ليست إلا مجرد واجهة تخفي وراءها غرضاً خفياً.

قال ليبلان وما زال التردد يساوره: ولكن المليونير أريستيد صاحب هذه المستعمرة رجل فوق الشبهات. إنه من أكبر الأغنياء في هذا العصر ومن كبار المحسنين المحبين للخير، وله مستشفيات خيرية في باريس وفي ليون.

- هل نسيت أن أريستيد كان موجوداً في فزان في الوقت الذي كانت فيه أوليف بيترتون موجودة هناك؟

- أكان هناك حقاً؟ إذن فالأمر غريب!

رد جيسوب: بل غريب جداً يا عزيزي.

وران الصمت عليهما لحظة، وأخيراً قال ليبلان: إنها لمخاطرة جسيمة أن نتعرض للسيد أريستيد دون دليل نستند إليه، فإن له نفوذاً لا يمكن أن نتصور مداه. إن له إصبعاً في جميع المؤسسات والدوائر الحكومية والبنوك والصناعات الرئيسية ومصانع السلاح وشركات النقل، وبإيماءة منه تسقط الحكومات وتفلس البنوك والشركات! واستطرد المفتش في شرود: إنه يعيش في قصره في إسبانيا منزوياً متباعداً عن الناس، ولكنه بملايينه يحرك الدولة ويسيطر عليها. فكيف يمكن أن نواجهه ونتحداه؟ يجب أن يتوافر لدينا دليل، أي دليل قبل أن نخطو خطوة واحدة.

قال جيسوب: هون عليك يا صديقي، فالدليل لن يعوزنا في النهاية.

فقال ليبلان في وجوم: لو فشلنا فسوف نطرد أنت وأنا من عملنا شر طرد.

فرد جيسوب في سكون: كن مطمئناً يا صديقي، لن نطرد، بل سوف ننتصر.

* * *

الفصل التاسع عشر

أخذت السيارة تهدر وهي تزحف على مهل ترتقي التل في طريقها إلى مستعمرة الجذام، وأمام الباب الحديدي توقف الركب. كانت أربع سيارات، في الأولى منها أحد الوزراء وبجانبه سفير أمريكا في باريس، وفي الثانية قنصل إنجلترا في مراكش وأحد أعضاء البرلمان الفرنسي ومدير شرطة باريس. أما السيارة الثالثة فكانت تضم عضواً سابقاً في اللجنة الملكية ورئيساً سابقاً في المحكمة العليا مع اثنين من رجال الصحافة الذائعي الصيت. على حين كانت السيارة الرابعة تقل اثنين من أشهر رجال المخابرات ومعهما المفتشان ليبلان وجيسوب.

أسرع السائقون يفتحون أبواب السيارات ونزلت منها النخبة الممتازة من الزوار. وغمغم الوزير بصوت خافت: أرجو أن تكون جميع الاحتياطات قد اتخذت تجنباً للعدوى!

رد المفتش ليبلان: كن مطمئناً يا سيدي الوزير، فقد اتخذت جميع الاحتياطات، كما أننا لن نقترب منهم بل سنراهم عن بعد وهم خلف الأسلاك الشائكة.

بدا الارتياح على وجه الوزير، وقال السفير الأمريكي شيئاً

عن طرق الوقاية الآمنة وكيفية الحيلولة دون تسرب العدوى باتباع الأساليب الطبية الحديثة. ثم فتحت البوابة الضخمة على مصراعيها، وفي المدخل كان نفر من موظفي المستعمرة في انتظار الضيوف للترحيب بهم وعلى رأسهم مدير المستعمرة ونائب المدير واثنان من الأطباء. وبعد تبادل التحية قال الوزير: أرجو أن يكون عزيزي السيد أريستيد قد برّ بوعده فلم يعقه شيء عن الحضور.

فرد نائب المدير: لقد طار السيد أريستيد بالأمس آتياً من أسبانيا، وهو ينتظركم في مكتبه يا سيدي الوزير، فهلا تفضلتم بمرافقتي؟

وتقدم نائب المدير والركب والجميع في أعقابه، واستدار الوزير ببصره إلى اليمين فرأى المجذومين يغدون وراء القضبان المزودة بالأسلاك الشائكة وهم يحدقون في الضيوف كأنهم حيوانات حبيسة، فسرى الاطمئنان إلى قلبه إذ كانت فكرته عن مرض الجذام هي نفس العقيدة التي سادت القرون الوسطى.

كان السيد أريستيد في انتظار ضيوفه في مكتبه الفخم الفاخر الرياش. رحب بزائريه في حرارة وأبدى اغتباطه بزيارتهم لتفقد المستشفى ومعامل الأبحاث والاطلاع على أحدث الاكتشافات التي وصل إليها الباحثون في ميدان العلاج، ثم أمر بتقديم مختلف المشروبات إلى ضيوفه.

قال أحد الصحفيين المرافقين للبعثة: الحق أنه عمل رائع يا سيد أريستيد هذا الذي تقومون به هنا.

فأومأ أريستيد برأسه وقال: نعم، أنا فخور بهذا المكان. إنه هديتي إلى الإنسانية، وما بخلت يوماً على الأبحاث التي تجري هنا بأي قدر من المال.

قال أحد الأطباء في حماس وانفعال: إن هذا المركز العلمي هو أقصى ما يطمح إليه العلماء، فهو مزود بأحدث الأجهزة العلمية، ومن حسن الحظ أننا استطعنا أن نتوصل إلى نتائج باهرة.

فقال أريستيد في نبرة الإنسان المؤمن: كان من توفيق الله عليّ ورضاه أن أحرزنا شيئاً من النجاح.

ومال عضو البرلمان على أذن رئيس المحكمة العليا السابق وقال هامساً: هذا العجوز المنافق يتظاهر بالتقوى والورع والله يعلم عدد البيوت التي خربها بمضارباته. إنه يستنزف دم الناس بإحدى يديه ويحسن باليد الأخرى.

فقال القاضي القديم مغمغماً: إن أعظم الاكتشافات العلمية اكشتفت دون حاجة إلى مثل هذا البذخ والإسراف.

قال أريستيد وقد فرغوا من تناول المشروبات: يسعدني أيها السادة أن تتناولوا الطعام معنا، وسينوب الدكتور فان هايديم عني في الترحيب بكم لأنني أتبع نظاماً غذائياً يحول دون مشاطرتكم الطعام، وبعد ذلك يمكنكم أن تتفقدوا المركز العلمي وأن تطلعوا على ما تشاؤون وأن توجهوا إلى الدكتور فان هايديم ما يطيب لكم من أسئلة.

صحب الطبيب ضيوفه إلى قاعة الطعام، وكانت ألوان

الطعام شهية وفاخرة فأبدى الوزير ثناءه وتقديره. قال الدكتور فان هايديم: إننا نولي الطعام عناية كبيرة حتى لا يشعر أحد من علمائنا أو مرضانا بأي نقص، فالفاكهة والخضروات تصل إلينا بالطائرة مرتين في الأسبوع، ولدينا ترتيب خاص بالنسبة للدواجن واللحوم، كما أن لدينا ثلاجات ضخمة نحتفظ فيها بالمؤونة.

وفي النهاية قدمت القهوة التركية، وبعد ذلك بدأت البعثة في تفقد المركز العلمي، واستغرقت الزيارة أكثر من ساعتين. كان الدكتور فان هايديم بادي الاستعداد للإجابة على أي سؤال وشرح كل ما يخفى على الضيوف. كان الوزير أثناء الجولة في دهاليز المستشفى وقاعاتها يتقدم الموكب وبجانبه المضيف فان هايديم يتبعهم الآخرون، على حين تعمد جيسوب وليبلان أن يتخلفا إلى الوراء وأن يسيرا في نهاية الموكب، وأخرج جيسوب من جيب صديريته ساعة ضخمة تطلع فيها ثم هز رأسه صامتاً.

قال له ليبلان: هل وجدت شيئاً؟ أما من علامة أبداً؟

هز جيسوب رأسه نفياً وأعاد الساعة إلى جيبه، ومن حين لآخر كان جيسوب ينظر في ساعته وليبلان يطرح عليه نفس السؤال: أما من علامة؟ ويأتيه نفس الرد: لا شيء! لا أثر يدل على وجودهم هنا، لا شك أنهم نقلوهم إلى موضع بعيد منعزل حتى لا نلتقي بهم أثناء الجولة.

تساءل ليبلان: إذن كيف نحصل على الدليل؟ أننا دون دليل سنجد أنفسنا عاجزين عن اتخاذ أي تدبير. أنت ترى

أنهم جميعاً مبهورون بما يشاهدون، الوزير والسفير الأمريكي والقنصل البريطاني. إنهم جميعاً مؤمنون بأن أريستيد رجل عظيم وفوق الشبهات.

فقال جيسوب باقتضاب: قبل أن نغادر المركز سيكون لدينا الدليل المنشود.

فهز ليبلان كتفيه وقال: أنت شخص شديد التفاؤل يا صديقي.

فرد جيسوب: هل تعلم سر الساعة التي أحملها ولا أفتأ أتطلع إليها؟ إنها أحدث الاختراعات العلمية يا عزيزي ليبلان، فهي ليست مجرد ساعة يدوية عادية وإنما تضم في داخلها جهاز استقبال دقيق الحجم يتلقى إشارات لاسلكية من جهاز آخر مداه مئة متر، ولا زلت أتوقع أن أتلقى هذه الذبذبة اللاسلكية من زميل موجود داخل المبنى، إلا إذا كان يبعد أكثر من مئة متر، إذ يستحيل أن تمتد الذبذبة إلى أكثر من هذه المسافة.

- إذن فهذا هو الدليل الذي تترقبه؟

- تماماً، ولم أفقد الأمل حتى الآن.

قال ليبلان: ولكن الوزير لن يأخذ بهذا الدليل. إنه يريد دليلاً قاطعاً لا مجرد ذبذبة في الهواء، يريد أن يرى أمامه شخصاً حياً يقول له إنه كان محبوساً في هذا المركز وإنهم قد احتجزوه هنا.

فرد جيسوب: سوف أقدم إليه هذا الشخص الحي. ثم

ما لبث أن أردف: ومع ذلك فإنني لا أعتمد في إثبات نظريتي على الوزير أو السفير أو عضو البرلمان، لأن لرجال السياسة حساسية خاصة يشعرون معها بالحرج لأي تصرف يبدر منهم.

فسأل ليبلان: وعلى من تعتمد إذن؟

- على رجل عجوز محدب الظهر، ثقيل السمع، ضعيف البصر.

فضحك ليبلان وقال: آه! لعلك تقصد رئيس المحكمة العليا السابق؟

- تماماً، إنه رجل عرك الحياة وعركته، ولطول عهده بالقضاء أصبح له أنف حساس يشم بسهولة أي رائحة عفنة، وإذا ارتاب في أمر فلن يقعده شيء عن متابعته وتعريته والكشف عنه. إنه رجل علمه منصب القضاء أن ينصت وأن يتابع الإنصات حتى يقع على الدليل. هذا الرجل هو الذي سيؤازرني في موقفي ضد السيد أريستيد.

* * *

كانت جولة الضيوف قد انتهت بهم الآن مرة أخرى إلى مكتب أريستيد وقدمت إليهم المشروبات من جديد. هنأ الوزير السيد أريستيد بالعمل العظيم الذي يؤديه للبلاد وانضم السفير الأمريكي يزجي الثناء، وفي هذه الأثناء دار الوزير ببصره فيما حوله وقال بلهجة تتسم بالعصبية: والآن أظن أيها السادة أنه قد حان الوقت لكي نودع مضيفنا العزيز، فقد شاهدنا كل ما نريده ولم يعد لدينا شيء آخر يستحق المشاهدة.

وضغط الرئيس على كلمات الجملة الأخيرة كأنما يقول لجيسوب وليبلان: "ها أنتما قد رأيتما أنكما كنتما واهمين". ثم استطرد: إن هذه المؤسسة من أعظم ما شهدت في حياتي ولا نظير لها في العالم، والآن اسمح لي يا سيدي العزيز أن نودعك وأن نكرر الشكر.

كانت هذه العبارات حاسمة وقاطعة توحي بما يجول في ذهنه، كأن يريد أن يقول: لقد انهارت شكوككم أيها السادة. ها نحن قد طفنا بجميع أرجاء المبنى ولم نشهد أثراً لهؤلاء العلماء الذين زعمتم أنهم مساجين خلف هذه الجدران، فهل طاروا في السماء أم انشقت الأرض وابتلعتهم؟ إنني الآن مرتاح الضمير وأستطيع أن أغادر المكان مطمئناً. وقبل أن يهم الوزير قائماً ارتفع صوت من أقصى يقول: إذا أذنتم يا سيدي الوزير فإنني أحب أن أسأل مضيفنا الكريم منّة صغيرة.

فقال الوزير: آه طبعاً! لا مانع يا سيد جيسوب.

قال الشرطي الإنجليزي يخاطب السيد أريستيد: لقد التقينا أثناء جولتنا بالعديد من رجالك ومعاونيك، ولكني أحب أن ألتقي بصديق قديم موجود هنا، فهل يمكن أن تأمروا باستدعائه؟

قال الدكتور فان هايديم باستغراب: ألك صديق هنا يا سيد جيسوب؟

ردّ جيسوب: بل الواقع أن لي صديقين هنا، سيدة تدعى السيدة بيترتون، أوليف بيترتون، وزوجها الذي كان يعمل

في إنجلترا في مركز هارويل العلمي وقبل ذلك كان مقيماً في الولايات المتحدة. فهل يمكن قبل أن أنصرف أن أتحدث إليهما؟

كان رد فعل الدكتور فان هايديم رائعاً يدعو إلى الإعجاب. لم ينم وجهه عن أثر المفاجأة وإنما قطب جبينه في دهشة خالصة وأخذ يردد: بيترتون، السيدة بيترتون؟ لا أعتقد أن لدينا هنا أحداً بهذا الاسم.

استطرد جيسوب: يوجد هنا أيضاً شاب أمريكي يدعى أندرو بيترز، ومهنته باحث كيميائي فيما أعتقد.

والتفت إلى السفير الأمريكي قائلاً: أليس كذلك يا سيدي؟

وتريث السفير الأمريكي برهة، فهو دبلوماسي يزن موقع قدمه بدقة قبل أن يتقدم خطوة واحدة، ثم قال: تماماً، تماماً، أندرو بيترز. أنا أحب أن أقابله.

وزادت دهشة فان هايديم، وبدت أصيلة لا زيف فيها وقال: أندرو بيترز! أخشى يا سيدي السفير أن تكون المعلومات التي لديكم غير دقيقة، فليس لدينا أحد بهذا الاسم، بل إنني لم أسمع بهذا الاسم من قبل.

قال جيسوب بإصرار: ولكنك طبعاً سمعت باسم توماس بيترتون؟

وتردد فان هايديم برهة، وألقى بنظرة خاطفة نحو مولاه المليونير ثم تمالك نفسه وقال: توماس بيترتون؟ آه، أظن أنه...

وانبرى أحد الصحافيين قائلاً: توماس بيترتون؟ لقد كان

حديث الصحف منذ ستة شهور عندما اختفى فجأة. نعم، كان في باريس لحضور أحد المؤتمرات فإذا به يتخلف عن الجلسات ويختفي، وقد بحثت عنه الشرطة في كل مكان دون أن تهتدي إلى أي أثر له. هل تريد يا سيد جيسوب أن تقول إنه كان موجوداً هنا طوال الوقت؟

ولم يعد فان هايديم مسيطراً على هدوئه ومضى يتكلم في عصبية وانفعال، فقال: أخشى يا سيدي أن يكون بعضهم قد زودك بمعلومات غير صحيحة، تلك دون شك إشاعة كاذبة! لقد رأيت جميع من يعملون لدينا، رأيتَ كل شيء هنا.

قال جيسوب بإصرار ولكن بهدوء: كلا، لم نرَ كل شيء ولم نرَ كل من يعملون هنا. واستطرد: هنا مثلاً شخص يدعى إيريكسون، وهنا أيضاً الدكتور لويس بارون، ومن المحتمل أن تكون السيدة كالفن بيكر هنا أيضاً.

وبدا على الدكتور فان هايديم أنه تذكر فجأة شيئاً كان غائباً عنه، فقد قال: آه! ولكن هؤلاء القوم قتلوا جميعاً في مراكش في حادث سقوط طائرتهم. تذكرت الآن أنني قد قرأت هذا النبأ في الصحف منذ أسبوعين. أنا متأكد على الأقل من اسمين منهما: إيريسكون والدكتور بارون. واستطرد: لقد منيت فرنسا بخسارة جسيمة، فالدكتور بارون من كبار العلماء الذين لا يعوضون. أما السيدة كالفن بيكر فلا أعرف شيئاً عنها، وإن كنت أذكر أنها كانت بين ركاب الطائرة سيدة إنجليزية أو أمريكية، لا أدري، وربما كانت هذه السيدة هي السيدة بيترتون إذا لم تخدعني ذاكرتي.

قال جيسوب: إذن فأنت مصر على أنني مخطئ وأن هؤلاء القوم غير موجودين هنا؟

قال الدكتور فان هايديم: وكيف يكونون هنا وقد قُتلوا جميعاً في حادث الطائرة؟ أنا أتذكّر أن الشرطة قد عثرت على جثثهم بين الحطام.

قال جيسوب في كلمات بطيئة متمهلة ليكسبها مغزى خاصاً: ولكن الجثث كانت متفحمة بحيث استحال التعرف عليها ومعرفة شخصيات أصحابها.

ومن أحد أركان القاعة ارتفع صوت أجش يتكلم، وإن كان صوتاً صارماً واضح النبرات، قال الصوت: هل أفهم من قولك أنه لم يمكن التعرف على أصحاب الجثث التي وجدت بين الحطام؟

كان المتكلم هو ذلك العجوز اللورد ألفيرستوك، الرئيس السابق للمحكمة العليا. قال جيسوب مجيباً: تماماً يا سيدي اللورد. كانت الجثث متفحمة اختفت معالمها، فافترضت الشرطة أنها جثث ركاب الطائرة المدونة أسماؤهم في السجل. لكن لديّ من الأسباب ما يدفعني إلى الاعتقاد بأن ركاب الطائرة قد نجوا من الفاجعة وما زالوا أحياء، هذا هو اعتقادي.

فقال الرئيس السابق للمحكمة العليا في نبرة من الامتعاض: اعتقادك؟ أن ما يعتقده الإنسان ليس دليلاً.

فقال جيسوب: بل الدليل حاضر يا سيدي اللورد.

- إذن ما هو الدليل يا سيد جيسوب؟

رد جيسوب: في اليوم الذي غادرت فيه السيدة بيترتون فزان إلى مراكش كانت تتزين بعقد من اللآلئ المقلدة، وقد عثرنا على حبة من هذا العقد على مسافة نصف ميل من حطام الطائرة.

فعاد القاضي القديم يتساءل في لهجة المحقق القدير: وكيف لك أن تتأكد من أن الحبة التي عثرتم عليها هي من نفس العقد الذي كانت السيدة بيترتون تتحلى به؟

- لأنه يوجد في جميع حبات العقد علامة سرية لا ترى بالعين المجرد وإنما تظهر تحت عدسة المكبر، وكانت الحبة التي عثرنا عليها مرسومة بنفس العلامة.

- ومن الذي وضع هذه العلامات على حبات العقد؟

- أنا بنفسي يا سيدي اللورد.

استطرد اللورد في استجوابه سائلاً: وما الذي دفعك إلى اتخاذ هذا الإجراء ووضع هذه العلامات؟ أكان لديك سبب لهذا؟

- نعم يا سيدي اللورد. كان لديّ ما يحملني على الاعتقاد بأن السيدة بيترتون ستقودني إلى زوجها الذي كان قد صدر الأمر بالقبض عليه لإفشائه معلومات تمس أمن الدولة. واستطرد جيسوب: لم تكن العلامة الوحيدة التي عثرنا عليها بالقرب من حطام الطائرة، بل عثرنا على لؤلؤتين أخريين

على طول الطريق بين الموضع الذي احترقت فيه الطائرة وبين المكان الذي نحن فيه الآن، وقد أسفرت التحريات التي قمنا بها في الجهات التي عثرنا على حبات اللؤلؤة فيها عن مرور أشخاص بهذه المناطق تنطبق أوصافهم العامة على أوصاف ركاب الطائرة المحترقة.

وتابع حديثه قائلاً: ليس هذا فقط، بل إنني كنت قد زودت أحد الركاب بقفاز على كفه طبعة بالفوسفور، وطلبت إلى هذا الشخص أن يخرج يده المكسوة بالقفاز من نافذة السيارة أثناء الليل عند مروره بالقرى، فيضيء الفسفور في الظلام ويتناقل الناس أن يد الشيخة فاطمة ظهرت في هذه القرى، وتبلغنا الإشاعة طبعاً وبذلك يسهل علينا اقتفاء أثر هذه الجماعة.

قال القاضي متسائلاً: الشيخة فاطمة؟! ومن تكون الشيخة فاطمة هذه؟

أجاب: الشيخة فاطمة في نظر السذج من أهل هذه البلاد امرأة مبروكة، وهم يعتقدون أنه إذا ظهرت يدها التي تشع نوراً لأحد الناس حلت عليه البركة والخير. فرأيت أن أستغل هذه الخرافة لتسهل مهمة المطاردة والمراقبة على رجالي، وفعلاً ظهرت يد الشيخة فاطمة من نافذة سيارة كانت في طريقها إلى هذا المركز العلمي.

هز اللورد ألفيرستوك رأسه المجلل بالشيب وتألقت عيناه تحت حاجبيه الكثيفتين وقال: رائع، رائع! تدابير تدل على الدهاء.

تململ السيد أريستيد في مقعده الكبير ورمش بطرفه مرة أو مرتين أثناء هذه الرواية، رغم ما يتسم به من ثبات الأعصاب. ثم اعتدل القاضي في مقعده ونصب قامته، ثم أطلق سؤاله الحاسم: أين اهتديتم إلى الآثار الأخيرة لهذه الجماعة من الناس؟

- في مطار حربي مهجور من مخلفات الحرب الماضية.

وبسط جيسوب وصفاً دقيقاً لموقع المطار فقال أريستيد معقباً: هذا المطار يقع على بعد مئات الأميال من هذا المركز العلمي، فإذا نحن افترضنا جدلاً أن حادث احتراق الطائرة كان مصطنعاً وأن ركاب الطائرة قد نُقلوا بعد ذلك إلى المطار المهجور، فمن أين لك أن تعرف أنه قد جيء بهم بعد هذا إلى مستعمرة الجذام؟

أجاب جيسوب: إن لديّ أسباباً قوية تؤيد هذه النظرية. لقد بعثنا بإحدى الطائرات تمسح المنطقة المشكوك في أمرها، وقد طارت أثناء بحثها فوق هذا المبنى على ارتفاع منخفض جداً، وأثناء طيرانها تلقى الطيار إشارة لاسلكية خاصة كان متفقاً عليها مع شخص من ركاب الطائرة كنا قد زودناه بجهاز إرسال لاسلكي يرسل ذبذبة معينة، وبذلك نهتدي إلى مكان حامل الجهاز، وفهمنا من هذه الإشارة اللاسلكية أن الجماعة التي نبحث عنها موجودة في مستعمرة للجذام.

قال أريستيد بهدوء: يا سيد جيسوب، ما زلت أعتقد أن هناك مؤامرة مدبرة لتضليلك وإيقاعك في الخطأ، فإن هذه الجماعة التي تحدثت عنها غير موجودة في مستعمرة الجذام.

ثم استطرد: ومع ذلك لك مطلق الحرية في أن تفتش هذا المبنى إن شئت.

أجاب جيسوب: وما الفائدة يا سيدي؟ إن تفتيش هذا المبنى لن يسفر عن شيء أبداً، ثم إننا قد رأينا منه حين تجولنا ما فيه الكفاية فلا داعي للقيام بجولة أخرى.

قال أريستيد: أنت تناقض نفسك يا سيدي. كيف تؤكد أن الجماعة موجودة هنا وفي الوقت ذاته تقول إن تفتيش الموقع لن يسفر عن العثور عليهم؟

- هذا لأنني أعرف أنهم موجودون في مكان سري خفي.

- وأين هذا المكان السري الخفي؟ هل تستطيع أن تحدده؟

فابتسم جيسوب وقال بهدوء: إنه في الدهليز الرابع المتصل بالمعمل الثالث، في أقصى النقطة التي تنحرف يساراً.

وتململ الدكتور فان هايديم في مقعده بحركة مفاجأة وحاول أن يثبّت نظارته على عينيه ولكنها أفلتت من بين أصابعه المرتعشة ووقعت فوق السجادة فانحنى يلتقطها. فتطلع إليه جيسوب باسماً وقال: ها أنت ترى يا دكتور أن معلوماتنا مؤكدة وصحيحة.

قال الدكتور فان هايديم بانفعال: هذه إهانة شديدة! أتريد أن تزعم أننا نسجن هنا بعض الناس رغماً عن إرادتهم؟ إنني أنكر كل هذا إنكاراً قاطعاً.

- أتدري كيف عرفت أن العلماء في هذا المكان السري من المبنى؟ إن رجلاً من أعواني قد خدعكم وانضم إليكم على أنه واحد من العلماء، ومع مساعدي هذا جهاز لاسلكي يرسل ذبذبة معينة، وعند مروري بالدهليز الرابع تلقى الجهاز الذي أحمله داخل ساعتي هذه الذبذبة الصادرة من الجهاز الآخر.

قال الوزير في صوت يخالجه التردد: لقد انتهينا إلى موقف دقيق، فهذا يؤكد وذاك ينكر بنفس القوة والحماس.

تكلم المليونير وقال بسكينة: إن ما سمعناه طرفة مسلية، ولكن كل ما جاء بها مجرد افتراضات وتكهنات لا تعدو أن تكون شبيهة للروايات البوليسية، ولهذا اسمحوا لي أيها السادة أن أقول إن الوقت قد حان لكي تنصرفوا فإن لديّ مشاغل جمة تدعوني إلى الرجوع إلى إسبانيا فوراً، كما أن موعد رحلتكم قد فات منذ وقت غير قصير، فإذا تأخرتم أكثر من ذلك أثرتم القلق في البلاد إذ سيتبادر إلى الأذهان أن طائرتكم تهشمت في رحلتها.

تبادل جيسوب وليبلان النظرات، فقد أدركا أن الموقف أصبح حاسماً وأنه وصل إلى نقطة المواجهة الصريحة القاطعة. إن السيد أريستيد يستنجد الآن بكل نفوذه ومكانته للقضاء على الشكوك التي ثارت، فهو يتحدى هؤلاء القوم بكل ما لديه من شجاعة محاولاً أن يفرض عليهم إرادته. إن الوزير في حرج من أمره لا يدري كيف يتصرف، إذ لا شك أن رئيس الحكومة طلب أن يكون مرناً وعلى حذر، ومدير الشرطة حريص على أن يرضي الوزير وأن يمالئه ويجاريه، والسفير الأمريكي قد

يكون مقتنعاً إلى حد كبير ولكنه بحكم منصبه حريص أن يكون لبقاً حتى لا يتورط في أزمة سياسية، أما القنصل البريطاني فمنصبه أتفه من أن يتحدى الآخرين.

تطلع جيسوب إلى الصحفيين واحداً بعد الآخر، إن أمله متعلق بهما، ولكنه ما كان ليجهل أن السيد أريستيد يستطيع أن يشتريهما. وقد يكون الثمن باهظاً، ولكنه على أية حال يستطيع أن يطويهما. وأخيراً استقر نظر جيسوب على الرجل العجوز، هذا القاضي القديم، الرئيس السابق للمحكمة العليا. كان منكمشاً في مقعده ومن تحت حاجبيه الكثيفين النافري الشعر كأنهما شجرة صغيرة كانت عيناه تبرقان. تأمل جيسوب برهة ثم قال في نفسه: نعم، هذا الرجل لا يستطيع أحد أن يشتريه!

وأفاق جيسوب من خواطره على صوت صارم النبرات هو صوت القاضي القديم. كان الصوت الصارم يقول: أرى أن نتريث قليلاً وأن لا نبادر بالرحيل. إن أمامنا الآن قضية بحاجة إلى المزيد من التحقيق لاستجلاء غوامضها. هناك اتهامات خطيرة وجهت وما كان ينبغي أن توجه، كما أنه لا ينبغي أن نسقطها من حسابنا دون تقدير، وإنصافاً للعدالة وإحقاقاً للحق يجب أن نتيح كل فرصة لتفنيد هذه الاتهامات أو إقامة الدليل عليها.

لوح السيد أريستيد وقال مشيراً إلى جيسوب: البيّنة على من ادعى، فعليك أن تقيم الدليل على ما تقول. لقد نثرت الاتهامات يميناً وشمالاً دون دعمها بالبراهين.

- كلا أيها السادة، فالبراهين حاضرة وموجودة.

لم يكن جيسوب هو الذي نطق بهذه العبارة ولم يكن ليبلان هو الذي تفوه بها، كان الصوت صادراً من أقصى ركن في القاعة. كان الصوت صادراً من خادم مراكشي من البربر له وجه شديد السمرة يكاد لونه يضرب إلى السواد. واستدار الدكتور فان هايديم في حركة عنيفة يتطلع في دهشة إلى الخادم المراكشي واستقرت عليه عيون الجماعة أيضاً كلهم مشدوهين.

استطرد الصوت يقول بهدوء: نعم، إن الدليل حاضر أيها السادة. ولكم أن تأخذوا بشهادتي في التو واللحظة. لقد أنكر هؤلاء السادة وجود أفراد هذه الجماعة هنا، أندرو بيترز، وتوركيل إريكسون، والسيد والسيدة بيترتون، والدكتور بارون. ولكنه إنكار كاذب، فهؤلاء جميعهم موجودون هنا، وأنا أتكلم باسمهم بالنيابة عنهم.

وتقدم الخادم المراكشي خطوة إلى الأمام فوقف أمام السفير الأمريكي وقال يخاطبه: قد يكون من الصعب عليك معرفتي يا سيدي السفير وأنا على هذه الهيئة.

فتأمله السفير الأمريكي برهة وعلامات الحيرة تبدو على وجهه، ثم استطرد المراكشي ذو الوجه الأسود: سيدي السفير، أنا أندرو بيترز!

بدرت شهقة خافتة غير ملحوظة من بين شفتي السيد أريستيد، لكنه ما لبث أن استعاد ثباته ورباطة جأشه. واستطرد أندرو بيترز: وهؤلاء ليسوا الوحيدين الموجودين هنا، فهناك غيرهم كثيرون. شوارتز ميونخ، هيلدا نبيدهايم، وكذلك

جيفري ودافيدسون العالمان الإنجليزيان الشهيران، وهنا أيضاً بول من الولايات المتحدة، وكذلك الإيطاليان روكو شيتو وبيانكو، وأيضاً مارشيسون، وكثير غيرهم. كل هؤلاء هنا في هذا المبنى... وتابع الحديث قائلاً: في هذا المبنى أيها السادة جناح سري يسمى قاعة الطوارئ لها باب سري في جدار أحد الدهاليز لا يمكن لعين أن تتبينه لأنه لا يتراءى إلا جزءاً من الحائط.

وهتف السير الأمريكي: يا إلهي! هذا صحيح. أنت فعلاً أندرو بيترز، لكن ما هاتان الشفتان الغليظتان؟

فابتسم الخادم المراكشي قائلاً: حقنة واحدة من البارافين في الشفتين تكسبهما هذه الغلاظة، أما لوني فمرجعه صبغة دهنت بها وجهي. وحين قال لكم السيد جيسوب إن له مندوباً اندسّ بين العلماء فإنما كان يعنيني بهذا القول، فأنا الذي أرسلت الإشارة اللاسلكية بشفرة الموريس إلى الطيار الذي كان يحوم فوق المستعمرة، والإشارة التي التقطها الجهاز الذي يحمله السيد جيسوب كانت صادرة مني، من هذا الجهاز.

وأخرج من جيبه علبة سجائره الكبيرة الحجم والمصنوعة من غلاف إحدى القنابل، وقال: إن جهاز الإرسال الذي معي مخبأ داخل هذه العلبة.

قال السفير: إذا كنت حقاً أندرو بيترز فما هو رقمك السري في المخابرات؟

فرد على الفور: ٨١٣٤٧١ يا سيدي.

- تماماً، تماماً. هذا الرجل هو أندرو بيترز دون شك.

فتنحنح الوزير وعلا صوته ثم قال في شيء من التردد: هل تزعم أن هؤلاء القوم مسجونون هنا كرهاً عنهم وعن غير إرادتهم؟

على الأقل بعضهم كذلك يا سيدي الوزير.

قال الوزير: في هذه الحالة يجب اتخاذ الإجراءات الكفيلة بالتحقق من هذا الادعاء.

ونظر إلى مدير الشرطة فتقدم هذا خطوة إلى الأمام، فلوّح السيد أريستيد بيده قائلاً: لحظة أيها السادة، يبدو لي مما سمعت أن القائمين على إدارة هذا المركز العلمي قد خانوا الثقة التي وضعناها فيهم، هذا إذا صحت مزاعم السيد جيسوب.

ونقل نظراته الباردة الصارمة من الدكتور هايديم إلى مدير المركز، وكان منطوياً في نظرته أمر صادر إليهما بأن يلزما الصمت، وكان على يقين من أن أمره مطاع، فبأمواله يشتري سكوتهما وبنفوذه يخرجهما من ورطتهما. واستطرد: إن ما أقدمتما عليه أيها السيدان أمر خطير لا يبرره حماسكما للعلم، فقد أنشأت هذا المركز خدمة للإنسانية وتدعيماً للبحث العلمي الخالص، وبعد ذلك نفضت يدي من إدارته الفعلية. فإذا صح يا عزيزي المدير أن في هذا المركز قوماً محجوزين على غير إرادتهم فإنني أشير بأن تبادر على الفور بإطلاق سراحهم.

قال مدير المركز: لكن يا سيدي، إنني...

فقاطعه السيد أريستيد: نعم، يجب أن تنتهي هذه التجربة على الفور. ثم استدار إلى ضيوفه قائلاً: لا أحسب أيها السادة أنني في حاجة لأن أؤكد لكم أنه لا شأن لي مطلقاً بما يحصل هنا، فقد خان القائمون على هذا المركز ثقتي فحق عليهم العقاب.

كانت كلماته أمراً قاطعاً لا رجعة فيه، أولاً بسبب ثروته وثانياً بسبب نفوذه ومكانته. إن أحداً لن يجرؤ على أن يتعرض له بسوء، وحتى أعوانه لن يُستهدفوا للعقاب لأن نفوذه كفيل بإنقاذهم. فالسيد أريستيد المليونير المعروف والمحسن الكبير والرجل المرموق في عالم المال والذي يسيطر على البنوك والمؤسسات التجارية والصناعية لا يجب أن يتورط اسمه في هذه المشاكل أو أن يمسه أحد بكلمة، وكان السيد أريستيد على يقين لا تخالجه ذرة من الشك بأن هذه الفضيحة ستطوى في طي الكتمان.

واستطرد: نعم أيها السادة، إنكم تعلمون جميعاً أنه لا علاقة لي أبداً بما حدث هنا. كل مهمتي هي تقديم المال للبحث العلمي خدمة للإنسانية. والآن أرجو أن تسمحوا لي بالانسحاب فقد حان موعد سفري.

ونهضوا وقوفاً وانحنوا جميعاً تحية واحتراماً، وكان الوزير والسفير وعضو البرلمان هم أكثر الناس انحناء!

* * *

(تمت)